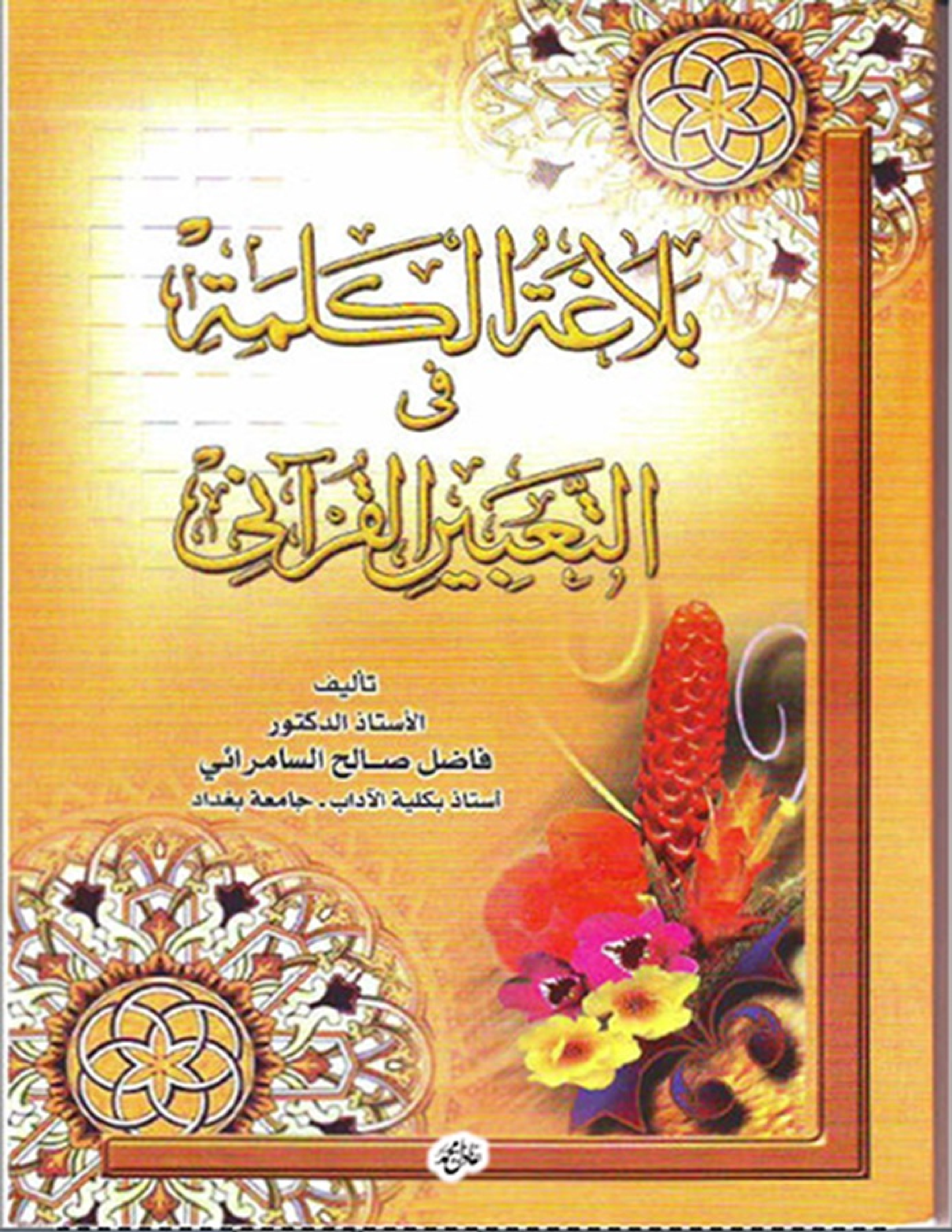


بلاغة الكلمة
في
التعبير القرآني
تأليف
الأستاذ الدكتور
فاضل صالح السامرائي
أستاذ بكلية الآداب. جامعة بغداد

بلاغة الكلمة في التعبير القرآني

تأليف الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي

أستاذ بكلية الآداب - جامعة بغداد

يقول المؤلف : هذا الكتاب يبحث في المفردة في القرآن الكريم، والمقصود ب (المفردة) هو الكلمة الواحدة . كما هو معلوم. . إن موضوع المفردة في القرآن موضوع واسع متشعب الأطراف متعدد المناحي، غير أني آثرت أن أبحث باختصار أمورا أراها ذات أهمية خاصة فيما أحسب وإن كان التعبير القرآني كله مهما . وهذه الأهمية تعود إلى أكثر من سبب : منها أن قسما مما بحثته في هذا الكتاب لم أجد المعنيين بدراسة بلاغة القرأن ، والمعنيين بدراسة المتشابه قد أشاروا إليه فيما وقع بين يدي من المصادر، وإن كان لا يبعد أن يكون مطروقا قي الأسفار التي لم يسعفنا الحظ في الوصول إليها وما اكثرها! وذلك نحو كثير من أحوال الذكر والحذف في المفردة نحو (تنزل) و (تتنزل) و(توفاهم) و (تتوفاهم) و (نبغ) و(نبغى) وغيرها وذلك كقوله تعالى: (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم) وقوله: (تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تخزنوا)، وقوله: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) وقوله: (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) وقوله: (ذلك ما كنا نبغ) وقوله: (قالوا ياابانا ما نبغي) .

عادل محمد

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين إمام الهدى محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

هذا كتاب يبحث في المفردة في القرآن الكريم . والمقصود بـ (المفردة) هو الكلمة الواحدة كما هو معلوم.

إن موضوع المفردة في القرآن في القرآن موضوع واسع متشعب الأطراف متعدد المناحي، غير أني آثرت أن أبحث باختصار أموراً أراها ذات أهمية خاصة فيما أحسب، وإن كان التعبير القرآني كله مهماً. وهذه الأهمية تعود إلى أكثر من سبب:

منها: أن قسماً مما بحثته في هذا الكتاب لم أجد المعنيين بدراسة بلاغة القرآن والمعنيين بدراسة المتشابه قد أشاروا إليه فيما وقع بين يدي من المصادر، وإن كان لا يبعد أن يكون مطروقاً في الأسفار التي لم يُسعفنا الحظ في الوصول إليها وما أكثرها! وذلك نحو كثير من أحوال الذكر والحذف في المفردة نحو (تنزّل) و(تتنزّل)، و(توفاهم) و(تتوفاهم)، و(نبغ) و(نبغي) وغيرها.

وذلك كقوله تعالى: "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ " (القدر 4)، وقوله: "تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا " (فصلت 30).

وقوله: "إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ " (النساء 97)، وقوله (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ" (النحل 28).

وقوله: "قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ" (الكهف 64)، وقوله: "قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي " (يوسف 65).

ونحو كثير من أحوال الإبدال في المفردة مثل (يضّرّعون) و(يتضرعون)، و(يذّكّرون) و(يتذكرون)، و(اطّيرنا) و(تطيرنا)، وكاستعمال (اللائي) و(اللآتي) وغيرها كقوله تعالى: "قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ" (يس 18)، وقوله: "قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ" (النمل 47).

ولا شك أن كل مفردة وُضعت وضعاً فنياً مقصوداً في مكانها المناسب. وأن الحذف من المفردة مقصود كما أن الذكر مقصود وأن الإبدال مقصود كما أن الأصل مقصود، وكل تغيير في المفردة أو إقرار على الأصل مقصودٌ له غرضه، كما سنبيّن ذاك ما وسعنا البيان.

والسبب الآخر الذي دعاني إلى تناول هذه المباحث هو أن قسماً مما بحثته قد طرقه الباحثون قبلي وحاولوا أن يتلمسوا الفروق بين استخدام المفردات غير أني لم أقتنع بقسم من هذه التعليلات، ورأيت أن كثيراً منها متكلّف فحاولت أن أُعللها تعليلاً آخر وجدته أشفى لنفسي

وأكثر اقناعاً لي، وأنا لا أزعم أني أتيت بأحسن مما ذكروه، وأن توجيهي أصوب مما ذهبوا إليه ولكني أذكر ما وجدته في نفسي.

وهذا نحو توجيه (فعّل) و(أفعل) بمعنى (نزّل) و(أنزل) و(نجّى) و(أنجى) كقوله تعالى: "مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ " (الأعراف 71)

وقوله: "مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ " (يوسف 40) وقوله: "فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ " (يونس 73)، وقوله: "فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ " (الشعراء 119).

وكاستعمال الإفراد والتثنية والجمع كالنخل والنخيل.

وتعاور المفردات كالعاكفين والقائمين في قوله تعالى: "أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ" (البقرة: 125)، وقوله: "وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ" (الحج:26) وما إلى ذلك.

ثم إن هناك أمراً آخر دعاني إلى تناول مثل هذه الأبحاث وهو أني لم أجد في شأن المفردة في القرآن الكريم وتعليل استعمالها كتباً مختصة في حدود ما اطلعت عليه.

نعم هناك في كتب التفسير وكتب المتشابه وغيرها إشارات إلى سبب اختيار هذه اللفظة في هذا الموضع دون غيرها من المتشابه كاختيار (يخرصون) في قوله: "وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ " (لأنعام: 116) واختيار (يظنون) في قوله: "وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ" (البقرة: 78) أو استعمال (القسط) في قوله: "وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (يونس - 54) واستعمال (الحق) في قوله: "وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ " (الزمر:69).

كما أن هناك كتباً في مفردات غريب القرآن قد تذكر الفرق بين لفظة وأخرى كالفرق بين جاء وأتى، والفرق بين الصراط والطريق والسبيل، والفرق بين (يفعلون) و(يعملون) و(يصنعون) وهو أشبه بما يُكتب في الفروق اللغوية. غير أني لم أر كتاباً يبحث في المفردة في القرآن ويُبوبها على الموضوعات ويجمع ما تشابه من ذلك ويدرسه. فحاولت أن أضع بداية متواضعة في هذا الموضوع فلعلّه يأتي من يُتم هذا العمل ويتوسّع فيه.

وقد ترى أن لم أبحث في هذا الكتاب موضوعات كان من المتوقع أن أبحثها كالإدغام والفكّ نحو (من يرتد) و(من يرتدد) وكالفروق اللغوية كالخوف والخشية والشُّح والبخل والصراط والسبيل والاختلاف بين المصادر ونحوها فأقول:لقد حاولت أن أتجنب كثيراً مما بحثته في كتبي السابقة قدر الإمكان كموضوع الإدغام والفك الذي ترددت آياته في أكثر من موضوع في كتاب (التعبير القرآني) وكتاب (الجملة العربية) ونحو كثير من معاني الأبنية كالمصادر والجموع وغيرها مما بحثته في كتاب (معاني الأبنية في العربية).

أما الموضوعات الأخرى التي لم أبحثها فإن الكلام فيها يتّسع اتساعاً كبيراً فلعلّ الله ييسر لنا أن نكتب فيها شيئاً في قابل الأيام.

وهناك أمر مهم جدير بأن أنبّه عليه وما كنت لأذكره لولا أني رأيت جملة من حملة العلم أشاروا إليه. وذلك أن في أثناء إلقاء محاضرات من هذا الموضوع على جماعة من أهل العلم وعلى طلبة الدكتوراة، وفي مواقف أخرى طرح سؤال وهو أن هذه التعليلات قد تكون مقبولة بموجب الرسم القرآني الذي بين أيدينا فكيف يكون التعليل إذا كان الرسم مختلفاً على قراءات أخرى؟

فمثلاً قوله تعالى: "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ" (القمر:54) لقد عللنا فيه سبب التعبير بـ(نهر) دون الجمع فكيف إذا كانت هناك قراءة أخرى (إن المتقين في جنات وأنهار)؟ وقوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ " (النساء: 97) فكيف إذا كانت هناك قراءة أخرى (تتوفاهم)؟

وقوله: "قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ" (الكهف: 64) بحذف الياء فكيف إذا كانت هناك قراءة بإثبات الياء أي (ذلك ما كنا نبغي)؟

وقوله تعالى: "قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ" (النمل:47) فكيف إذا كانت هناك قراءة إبدال أي (قالوا إنا تطيرنا بك)؟

وكاستعمال اللاتي واللآئي وذلك كقوله تعال: "وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ" (الأحزاب:4)، وقوله: "وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ" (النساء: 15) وما إلى ذلك.

والجواب أن أركان القراءة الصحيحة ـ كما هو مقرر ـ ثلاثة:

ـ صحة السّند. ـ موافقة خط المصحف العثماني ـ موافقة العربية

ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عن العشرة أم عمن هو أكبر منهم.

هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف .

فموافقة رسم المصحف العثماني شرط من شروط القراءة الصحيحة، ومتى اختل هذا الشرط فخالفت القراءةُ رسم المصحف دخلت في الضعف والشذوذ أو البطلان.

وبهذا يزول الإشكال فإن كل قراءة تخالف رسم المصحف لا تدخل في الصحيح. وبهذا يتضح أن ليست هناك قراءة صحيحة (إن المتقين في جنات وأنهار) فإن كلمة أنهار تخالف رسم المصحف.

وكذلك ما ورد في (توفّاهم) و (تتوفاهم) فإن توفّاهم تُكتب بتاء واحدة و(تتوفاهم) تُكتب بتاءين، فلا تكون إحداهما مكان الأخرى لآن ذلك مخالف لرسم المصحف.

وكذلك قوله (ما كنا نبغ) فإنه ليست هناك قراءة معتمدة بإثبات الياء لأنها رسمت في المصحف بلا ياء.

ونحو قوله (اطّيرنا) فإنه لا يصح أن تُقرأ في الموضع نفسه (تطيرنا) لأنها مخالفة لرسم المصحف.

ونحو اللائي واللاتي فإنهما في الرسم العثماني مختلفتان.

فاللاّئي تُرسم بلا صورة للهمزة (الّ~ئ) أما اللاّتي فتُرسم فيها للتاء صورة (الّتي)

وكذلك سائر ما ذكرناه فإنه لا يصح أن يُقرأ بما يخالف رسم المصحف فسقطت هذه الشبهة أصلاً.

وأود أن أذكر في الختام أمراً تجدر الإشارة إليه وهو أني حاولت أن أعتمد في التوجيه والترجيح على الأمور اللغوية المسلّمة والقواعد المقررة ـ على قدر علمنا المتواضع ـ والاستعانة بالسياق لتلمُس الفروق في الاستعمال، وهو مهم جداً في الدلالة على سبب الاختيار لئلا تزِلّ بنا القدم، وتذهب بنا بُنيّات الطريق.

نسأل الله أن يلهمنا الرُشد ويهدينا الصراط المستقيم. إنه سميع مجيب.

الذكر والحذف

قد يحذف فى التعبير القرآنى من الكلمة نحو (استطاعوا) و (اسطاعوا)، و(تتنزل)، و (تنزل)، و (تتوفاهم)، و (توفاهم)، و (لم يكن)، و (لم يك)، وما إلى ذلك، وكل ذلك لغرض وليس اعتباطا، فالتعبير القرآنى تعبير فنى مقصود، كل كلمة، بل كل حرف إنما وضع لقصد، كما ذكرنا فى كتابنا (التعبير القرآنى).

أن القرآن يحذف من الكلمة لغرض ولا يفعل ذلك إلا لغرض، ومن ذلك على سبيل المثال:

١ - أنه يحذف من الفعل للدلالة على أن الحدث أقل مما لم يحذف منه، وإن زمنه أقصر ونحو ذلك، فهو يقتطع من الفعل للدلالة على الاقتطاع من الحدث. أو يحذف منه فى مقام الإيجاز والاختصار بخلاف مقام الإطالة والتفصيل، فاذا كان المقام مقام إيجاز أوجز فى ذكر الفعل فاقتطع منه، وإذا كان فى مقام التفصيل لم يقتطع من الفعل، بل ذكره بأوفى صورة. ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه فى (التعبير القرآنى)، وفى (معانى النحو)، من نحو قوله تعالى: (لم يكن)، و (لم يك)، وغيرهما، فلا نعيد القول فيه [1] . ونحو قوله تعالى: (فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) الكهف: ٩٧ . وذلك فى السد الذى صنعه ذو القرنين من زبر الحديد والنحاس المذاب، وقد ذكرنا أن الصعود على هذا السد أيسر من إحداث نقب فيه لمرور الجيش، فحذف من الحدث الخفيف، فقال: فما اسطاعوا أن يظهروه بخلاف الفعل الشاق الطويل، فإنه لم يحذف، بل أعطاه أطول صيغة له، فقال: (وما استطاعوا له نقبا) فخفف بالحذف من الفعل بخلاف الفعل الشاق الطويل.

---

(١) انظر التعبير القرآنى، ٧٢ وما بعدها، معانى النحو ١/٢٤٨ وما بعدها.

ثم إنه لما كان الصعود على السد يتطلب زمنا أقصر من إحداث النقب فيه حذف من الفعل وقصر منه ليجانس النطق الزمن الذى يتطلبه كل حدث. ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر)(القدر4) وقوله: (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) الشعراء: ٢٢١- ٢٢٣ .

فقال فى هذه الآيات (تنزل) فى حين قال: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) فصلت:30 .

فقال فى آيتى القدر والشعراء (تنزل) بحذف إحدى التائين، وقال فى (فصلت) (تتنزل) من دون حذف، وذلك والله أعلم أن التنزل فى أيه (فصلت) أكثر مما فى الآيتين الأخريين، ذلك أن المقصود بها أن الملائكة تنزل على المؤمنين عند الموت لتبشرهم بالجنة[1] ، وهذا يحدث على مدار السنة فى كل لحظة، ففى كل لحظة يموت مؤمن مستقيم فتتنزل عليه الملائكة لتبشره بالجنة، فأعطى الفعل كل صيغته ولم يحذف منه شيئا.

وأما آية الشعراء، فإن التنزل فيها أقل لأن الشياطين لا تتنزل على كل الكفرة، وإنما تنزل على الكهنة أو على قسم منهم، وهم الموصوفون بقوله: (كل افاك أثيم يلقون السمع) ولا شك أن هؤلاء ليسوا كثيرا فى الناس وهم ليسوا بكثرة الأولين ولا شطرهم، بل هم قلة فاقتطع من الحدث، فقال (تنزل) بحذف إحدى التائين.

---

(١) انظر فتح القدير ٤/١٠ ٥، روح المعانى ١٢١/٢٤.

كذلك ما فى آية سورة القدر، فإن تنزل الملائكة، إنما هو فى ليلة واحدة فى العام، وهى ليلة القدر، فهو أقل من التنزل الذى يحدث باستمرار على من يحضره الموت، فاقتطع من الحدث.

فأنت ترى أنه اقتطع من الفعل إحدى التائين فى آيتى الشعراء وآية القدر، لأن التنزل أقل، ولم يحذف من آية فصلت، لأنه أكثر والله أعلم. ومن ذلك قوله تعالى: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم) النساء. 97 -٩٩)

وقوله: (إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون النحل.٢٧ -28).

فقال فى أية النساء (توفاهم) بحذف إحدى التائين، وقال فى سورة النحل (تتوفاهم) من دون حذف، ذلك أن المتوفين فى سورة النساء هم جزء من الذين هم فى النحل، فالذين فى النحل هم الذين ظلموا أنفسهم من الكافرين على وجه العموم. وأما الذين فى النساء فهم المستضعفون منهم، فهم قسم منهم، فلما كان هؤلاء أقل حذف من الفعل إشارة إلى الاقتطاع من الحدث وإلى قلته بالنسبة إلى الآخرين، فقال فى القسم الأكبر (تتوفاهم) وقال فى القسم القليل (توفاهم) بحذف إحدى التـائين، فناسب بين الفعل وكثرة الحدث.

ومن ذلك قوله تعالى: (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج)(الأحزاب.52) .

وقوله: (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه

كان حوبا كبيرا (النساء٢) .
فقال فى آية الأحزاب (تبدل) بحزف إحدى البائين، وقال فى أية النساء (ولا تتبدلوا) من دون حذف، ذلك أن آية الأحزاب حكمها مقصور على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو منهى عن أن يتبدل بأزواجه أزواجا.
أما الآية الثانية فهى حكم عام للمسلمين على مر العصور، فقال في الحكم المحدد والحدث المقصور على شخص واحد (تبدل) بالحذف من الفعل، وقال فى الحكم العام الممتد على مر العصور (تتبدلوا) فجاء بالصيغة القصيرة للحدث القصير وبالصيغة الطويلة للحدث الطويل الممتد.
ومن ذلك قوله تعالى. (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) آل عمران: 102- 105 .
وقوله. (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العئم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب) الشورى: 13- 14 .
فقال فى آية آل عمران (ولا تفرقوا) بحذف إحدى التائين، وقال فى أية الشورى (ولا تتفرقوا) وذلك لأكثر من سبب منها:
١ - أن آية آل عمران خطاب للأمة الإسلامية، وأما آية الشورى فالكلام فيها على أمم مختلفة وشرائع متعددة ذكر منها شريعة نوح وشريعة سيدنا محمد وإبراهيم وموسى وعيسي، فلما كانت هذه فى أمم متطاولة على مدى التاريخ جاء بالصيغة التى هى أطول، ولما كانت الآية الأولى فى أمة واحدة وهى أمة محمد وهى جزء من الأمم المذكورة فى الشورى، جاء بجزء من الفعل ولم يأت به كله.
٢ - أنه نهى الأمة الإسلامية عن أى شىء من التفرق مهما كان قليلا أو جزئيا وحذر من ذلك فقال (ولا تفرقوا) فاقتطع من الفعل للدلالة على النهى عن أى شيئ من التفرق مهما قل وضؤل. ثم إن الملاحظ أن تحذير الأمة الإسلامية من التفرق ونهيها عنه أشد:
١ - فقد خاطب المؤمنين بقوله: (يا أيها الذين آمنوا) آمرا وناهيا ومحذرا.

٢- ثم أمرهم بالوحدة والاعتصام بحبل الله، فقال: (واعتصموا بحبل الله).

٣- ثم أكد ذلك بالحال المؤكدة، فقال (جميعا) للدلالة على أن ذلك مطلوب من جميع أفراد الأمة بلا استثناء وأنه لا تغني الكثرة الكاثرة من المتحدين المعتصمين، بل ينبغى أن يكون ذلك على سبيل العموم والاستغراق، فلا يشذ أحد منهم، ولا تنجى الكثرة المعتصمة أو تحمى الفرد غير المعتصم من المحاسبة والعقوبة.

٤ - لم يكتف بالأمر السابق، بل نهاهم بصريح العبارة اضافة إلى ذلك، فقال (ولا تفرقوا).

٥- التذكير بنعمة الله عليهم فى التأليف بين قلوبهم.

٦ - نهاهم عن أن يتشبهوا بمن تفرق واختلف، فقال: (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا).

٧ - توعدهم على ذلك بالعذاب العظيم.

8 - لقد أطلق العذاب ولم يقيده بزمن، فلم يقل (وأولئك لهم فى الآخرة عذاب عظيم) كما قال فى مكان أخر: (ولهم في الآخرة عذاب عظيم) البقرة:114. للدلالة على أن عذاب التفرق يطولهم فى الدنيا والآخرة.

٩ - ومن الملاحظ أنه جاء ب(أن) التفسيرية فى آية الشورى ولم يخاطبهم مخاطبة صريحة، فقال: (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فى حين نهاهم نهيا مباشرا فى آل عمران، فقال: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) والكلام المباشر الصريح أهم وأكد من المفسر، فقولك:(قلت له: يا فلان أفعل) أهم وأكد من قولك (أوصيته أن افعل).

وهناك ملاحظة أخرى فى التعبير أنه جاء بالاسم الموصول (ما) فى شرائع الأمه الأخرى، وجاء ب(الذى) فى شريعة سيدنا محمد، فقال: (شرع لكم من الدين (ما) وصى به نوحا) (و (ما) وصينا به إبراهيم وموسى) فى حين قال: (و الذي أوحينا إليك) ذلك أن (الذى) أعرف من (ما) كما هو معلوم[1].

فلما كانت شريعة سيدنا محمد أعرف من شرائع الأمم الأخرى لنا لأننا نعرفها كلها جاء ب(الذى) ولما كانت شرائع الأمم الأخرى ليست بمنزلة شريعة سيدنا محمد، من حيث معرفتنا بها فإنا نعلم ما أعلمنا به ربنا فى القرآن الكريم، جاء ب(ما) والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون) الأنفال.. 20 .

وقوله: (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) هود:٥٢.

---

١) انظر معانى النحو ١٤٩/١.

فقال فى آية الأنفال (ولا تولوا) بحذف إحدى التائين، وقال فى أية هود (ولا تتولوا) من دون

حذف، ذلك أن أية الأنفال خطاب المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا) وأن آية هود هو خطاب للكافرين وهم قوم هود.

ومن المعلوم أن تولى المؤمنين أقل من تولى الكافرين، ذلك لأن المؤمنين مطيعون لله بخلاف الكفرة، فلما كان تولى المؤمنين أقل حذف من الحدث للدلالة على قلة توليهم بخلاف تولى الكافرين فإنه عام شامل فهو يشمل تولى المؤمنين وزيادة، فزاد فى الفعل للدلالة على زيادة توليهم.

هذا من ناجية، ومن ناحية أخرى أنه نهى المؤمنين عن التولى مهما كان قليلا، فقال: (ولا تولوا) وهو نظير ما ذكرناه أنفا فى قوله تعالى: (ولا تفرقوا).

ونحو ذلك قوله تعالى: (قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) (الفتح.١٦) فقال: (تتولوا) بتائين ذلك أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا ممن تمكن الإيمان فى قلوبهم وإن تخلفهم كان تخلف نفاق[1] بدليل ما قبلها من الآيات، فقد قال تعالى :

١ - يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ١١.

٢- بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك فى قلوبكم ١٢.

٣- وظننتم ظن السوء ١٢

٤ - وكنتم قوما بورا ١٢ فجاء بالتولى تاما.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٨٩/٤.

ونحوه قوله تعالى: (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وانتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) محمد.٣٦-٣٨ .

فقال (تتولوا) بتائين، ذلك أن المقصود بالتولى هنا هو التولى عن الإيمان والتقوى[1] . فجاء بالتولى تاما فلم يحذف من الفعل.

ومن ذلك قوله تعالى. (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) البقرة180 .

فقال (تصدقوا) بحذف إحدى التائين والأصل (تتصدقوا) ذلك لأن هذه من أحوال الصدقة النادرة وهو التصدق بدين المعسر فحذف لما لم يكن كالصدقة المعتادة لكونها أقل.

ومن ذلك قوله تعالى: (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) الكهف:٧٨ وقوله: (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا)(الكهف. ٨٢) بعدم الحذف من الفعل (تستطع) فى الآية الأولى، وحذف التاء منه فى الآية الثانية، وذلك أن المقام فى الآية الأولى مقام شرح وإيضاح وتبيين، فلم يحذف من الفعل وأما الآية الأخرى فهى فى مقام مفارقة ولم يتكلم بعدها بكلمة وفارقة، فحذف من الفعل.

---

(١) انظر البحر المحيط ٨٦/٨ ، فتح القدير ١/٥ ٤، روح المعانى ٨٢١٢٦.

ومن ذلك قوله تعالى: (وحاجة قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون) الأنعام:80

وهذا كلام سيدنا إبراهيم مع قومه ومحاجته لهم وهم ناس عريقون فى الشرك وعبادة الأوثان، فهم محتاجون إلى التذكر وإدامة التفكر والتأمل ليهتدوا إلى التوحيد، كما فعل سيدنا إبراهيم وهو ينظر فى ملكوت السموات والأرض يبحث عن ربه خالقه، فظنه الكوكب بادىء ذى بدء، ثم ظنه القمر، ثم ظنه الشمس، حتى اهتدى إلى خالقه بعد التأمل والنظر والتفكر، وهذا الأمر ذكره ربنا قبل هذه الآية الأنعام:٧٥- 79 . ثم انتهى إلى المحاجة مع قومه (وحاجه قومه)... الآية. فهذا مما يحتاج إلى طول تفكر وتفكير، فجاء بالفعل كاملا لم يحذف منه شيئا (أفلا تتذكرون) كما ناسب من ناحية أخرى مقام التفصيل والإطالة فيما حكى عن سيدنا إبراهيم واهتدائه إلى الحق من رؤية الكوكب فالقمر ثم الشمس، ثم انتهى إلى الحقيقة الكبرى حقيقة التوحيد.

ومنه قوله تعالى: (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون) هود:24 .

وهذا مما لا يحتاج إلى طول تأمل أو تذكر أو تفكير، فإنك إذا سألت أى فرد من عقلاء خلق الله: هل يستوى رجل أعمى أصم ورجل بصير سميع؟ أو هل يستوى الأعمى والبصير والأصم والسميع؟ كان جوابه: كلا لا يستويان. فحذف من الفعل للدلالة على أن هذا لا يحتاج إلى طول

تذكر وتأمل. وقد تقول: ولكنه قال: (وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون) غافر:٥٨) فقال: (تتذكرون) بتائين، فما الفرق؟ والجواب أن الفرق واضح بين الآيتين، ذلك أن آية غافر هذه فى الذين كفروا الذين يجادولن فى آيات الله بغير سلطان أتاهم وهؤلاء لا يرون أن المؤمنين أفضل منهم، بل على العكس من ذلك، فإنهم يرون أنفسهم أفضل من المؤمنين، فهم لا يقرون بهذا القول إقرارهم بالآية السابقة، خصوصا وأنه عبر عن الكافر بالمسىء، جاء فى (فتح القدير) فى قوله تعالى: (ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء)للتأكيد أى لا يستوى المحسن بالإيمان والعمل الصالح والمسيء بالكفر والمعاصى. وزيادة (لا) فى (ولا المسىء) للتأكيد!"[(1)] .

وجاء فى (تفسير ابن كثير) فى تفسير هذه الآية: "أى لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار (قليلا ما تتذكرون) أى ما أقل ما يتذكر كثير من الناس [(2)] . فهم يحتاجون إلى طول تذكر وتفكر ليعلموا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أفضل من الكافر وأن الكافر مسيء، فهذه هى أصل المسألة وعليها مدار الخلاف فالفرق واضح فى الآيتين، فإن آية هود ليس فيها خلاف ويستوى جميع عقلاء الخلق فى إقرارها مؤمنهم وكافرهم من دون تفكير ولا طول تذكر، ولذا قال فى أية هود: (هل يستويان مثلا) ولم يقرر ذلك، بل ترك الجواب لمن يجيب وهو معلوم، فى حين قرر ذلك فى آية غافر ولم يسأل، فقال: (وما يستوى الأعمى والبصير...) لأن جواب هذا السؤال فيه اختلاف وليس بمنزلة السؤال الأول، فالفرق واضح بينهما.

---

(١) فتح القدير ٤/٤٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٨٥.

ونحوه قوله تعالى: (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) النحل. ١٧ فإن الجواب واضح من دون حاجة إلى طول تأمل وتذكر، فقال (تذكرون). ونحوه قوله تعالى. (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) الجاثية: ٢٣ . فلو سألت أى شخص هل بإمكانه أن يهدى شخصا هذا شأنه:

١ - أنه اتخذ إلهه هواه. ٢- أضله الله على علم.

٣- ختم على سمعه . ٤ - ختم على قلبه.

٥ - جعل علي بصره غشاوة.

لأجاب بالنفي ولقال إنه ليس بوسع أحد أن يهدي مثل هذا الشخص غير الله والإجابة عن هذا

لا تحتاج إلى طول تأمل وتفكير. فإنه ليس بوسع أحد أن يهدي شخصا لا يسمع ولا يرى ولا يفقه، فكيف بمن أتخذ إلهه هواه مع كل ذلك؟ ومن ذلك قوله تعالى: (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) الأعراف: ٣ .

فقال (تذكرون) بتاء واحدة، وذلك إنها خطاب للمؤمنين، فقد جاء قبل هذه الآية قوله، (كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم....) . والمؤمنون لا يحتاجون إلى طول تذكر لاتباع ما أنزل إليهم من ربهم، بل أنهم بتذكر قليل يفعلون ذاك، فحذف من آية الأعراف لذلك، جاء فى (تفسير فتح

القدير) فى قوله تعالى: (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم....) يعنى الكتاب ومثله السنة لقوله: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ونحوها من الآيات وهو أمر للنبى صلى الله عليه وسلم ولأمته، وقيل: أمر للأمة بعد أمره صلى الله عليه وسلم بالتبليغ، وهو منزل إليهم بواسطة إنزاله إلى النبى صلى الله عليه وسلم (ولا تتبغوا من دونه أولياء) نهى للأمة أن يتبعوا أولياء من دون الله يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله)(1) .

ومن ذلك قوله تعالى: (الله الذي خلق السماوات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) السجدة.4-٥. وقوله: (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون)يونس 3 .

فقال فى السجدة .(أفلا تتذكرون) وقال فى يونس: (أفلا تذكرون) وذلك أنه فصل فى السجدة ما لم يفصل فى يونس وذلك:

١ - أنه قال فى يونس: (خلق السماوات والأرض في ستة أيام) . وقال فى السجدة (خلق السماوات والارض وما بينهما في ستة أيام) . فزاد فى السجدة: (وما بينهما).

٢ - قال في يونس: (يدبر الأمر) . وفصل فى السجدة فقال: (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) ففصل ما أجمله في يونس.

٣- قال فى يونس. (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) . وقال فى السجدة: (ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع)، فزاد الولى، فأطال فى فعل التذكر في السجدة، فقال (تتذكرون) وحذف من الفعل فى يونس، فقال (تذكرون) مناسبة للمقام.

---

(١) فتح القدير ١٧٩/٢.

ومن الذكر والحذف فى الفعل قوله تعالى. (قال ذلك ما كنا نبغ) الكهف: ٦٤ بحذف الياء من

الفعل. وفوله: (قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا) يوسف. ٦٥) بعدم الحذف، ذلك أن الحدث مختلف فى الآيتين، وإن السياق يوضح ذلك. قال تعالى: (قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا) الكهف:٦٣- 64) . ونسيان الحوت ليس هو ما يبغيه موسى على وجه الحقيقة، وإنما يبغى الشخص الذى يريد موسى أن يتعلم منه.

وأما فى سورة يوسف، فالطعام هو ما يبغون وهو سبب رحلتهم، ففرق بين البغيتين، فلما كان ما فى الكهف ليس هو مأ يبغون حذف من الحدث إشارة إلى عدم إرادة هذا الحدث على وجه التمام، وإنما هو علامة على الموضع الذى يجدون فيه ولما كان ما فى يوسف هو بغيتهم ذكر الفعل كاملا ولم يحذف منه، فناسب كل مقامه والله أعلم

٢- قد تحذف ياء المتكلم ويجتزأ عنها بالكسرة، وذلك لا يكون إلا لغرض، فإنه قد تذكر الياء فى مقام الإطالة والتفصيل وتحذف ويجتزأ عنها بالكسرة فى مقام الإيجاز والاختصار، وقد تحذف لغرض آخر يقتضيه المقام، إضافة إلى ذلك وذلك، كأن يكون المقام يقتضى إظهار النفس أكثر من مقام آخر، وذلك نحو قوله تعالى: (فلا تخشوهم واخشونى) البقرة:150) بذكر الياء، وقوله، (فلا تخشوهم واخشون) المائدة ٣) وقوله: (فلا تخشوا الناس واخشون (المائدة: ٤٥)، بحذف الياء منهما، وذلك لأكثر من سبب منها:

١ - أن مقام الإطالة والتفصيل فى سورة البقرة أكثر بكثير من سياق الآيتين الأخريين، فإن الكلام على تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وهو يبدأ بقوله تعالى: (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها.....) البقرة: ١٤٢ ويستمر إلى الآية ١٥٠) أما أية المائدة ذات الرقم ٣، فهى آية واحدة فى الأطعمة المحرمة، وهو قوله تعالى: (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم) المائدة ٣).

وأما الآية الأخرى فهى في سياق الكلام على التوراة فى آيتين وهما قوله تعالى: (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس .....) المائدة 44- 45) .

فاقتضى ذلك الزيادة فى البناء (اخشوني) فى البقرة دون الأيتين الأخريين.

٢ـ أن آية البقرة فى تحويل القبلة من بيت المقدس، وقد أثار ذلك فتنة وملاحاة وأرجافا من المشركين واليهود، حتى قال المشركون (إن محمدا تحير فى دينه [1] وحتى ارتد قسم من ضعاف الإيمان[2] وقد ذكر القرأن هذا الأمر، فقال: (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) البقرة:١٤٢)

---

(١) فتح القدير ١٣٦/١ ، ١٣٧.

(٢) انظر روح المعانى ٢/٥.

(وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) البقرة ١٤٣ . (وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله) (البقرة:143) (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) البقرة: 145). (ولئن اتبت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظـالمين) البقرة.١٤٥ . (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) البقرة: ١٤٧). أما آية الأطعمة فليس فيها ملاحاة ولا إرجاف ولا إثارة، ثم هى بعد انتصار المسلمين وعزة الإسلام واكتمال الدين، فقد قال تعالى فيها. (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) . (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) . وكذلك آيتا التوراة ليس فيهما إثارة ولا خصومة، فقد ذكر أن التوراة أنزلت

فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا لليهود ويحكم بها الربانيون والأحبار، وليس فيها ما يستدعى ملاحاة ولا فتنة. فاقتضى المقام فى آية البقرة ذكر نفسه سبحانه والتخويف منه وإظهار نفسه لخشيته أكثر من المقامين الأخرين.

٣- أن الشخص يذكر بالله ويخوف منه على قدر العمل الذى يطلب منه القيام به أو يحذر من القيام به، فكلما كان العمل أكبر كان التذكير بالله والتخويف منه أشد. فالذى يقدم على القتل ليس كمن يعتدى على آخر بالسب أو بالضرب، فإن المقدم على القتل يخوف بالله ويحذر أكثر بكثير من الشخص الآخر، وكذلك إذا طلب من شخص أن يقوم بأمر لا ينـهض به غيره، كان يطلب منه الوقوف فى وجه ظالم طاغ أو محاربة صائل، فإنه يذكر بالله ويخوف منه إذا أحجم عن ذلك أكثر بكثير من آخر ليس بمثل هذه المنزلة، ولا شك أن التحول فى القبلة من بيت المقدس إلـى الكعبة المشرفة فيه من الإرجاف والفتنة مظنة الارتداد عن الدين ما ليس فى الأمرين الأخرين، فاقتضى ذلك إظهار الله لنفسه بذكر الياء، فقال (واخشوني) وأن يجتزئ بالكسرة إشارة إلى المتكلم فى الموطنين الأخرين.

4 - أن آيات البقرة فيها توكيدات وهى تناسب هذا الإظهار، منها قوله تعالى: (وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله) البقرة: ١٤٣ ، (وإن الذين أوتوا الكتاب....) البقرة: ١٤٤، (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) (البقرة147) . (وإنه للحق من ربك) البقرة: ١٤٧)، (وإنه للحق من ربك) البقرة: ١٤٩)، (وما الله بغافل عما تعملون) البقرة: ١٤٩، وغيرها. فاقتضى ذلك إظهار الياء فى البقرة دون الآيتين الأخريين. ومن ذلك قوله تعالى على لسان المتوفى: (لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) المنافقون: ١٠ . بذكر الياء فى (أخرتنى)، وقوله على لسان إبليس: (لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا) (الإسراء 62) بحذف الياء منه.

والفرق بين المقامين ظاهر، ذلك أن طلب إبليس "لا يريده من أجل نفسه ولا لأنه محتاج إليه، وإنما يريده ليضل ذرية آدم، ثم إن هذا الطلب لا يعود عليه بنفع ولا يدفع عنه ضرا وليس له

مصلحة فيه، بل العكس هو الصحيح، بخلاف الطلب الآخر، فإنه يريده لنفسه حقا وأنه لا شيء ألزم منه لمصلحته هو ودفع الضرر عنه. فلما كان طلب التأخير لمصلحة الطالب حقا وأنه ابتغاه لنفسه على وجه الحقيقة أظهر الضمير، ولما كان طلب إبليس ليس من أجل نفسه ولا يعود عليها بالنفع حذف منه الضمير وأجتز بالكسرة.

ثم في الحقيقة: إن كلام إبليس ليس طلبا، وإنما هو شرط دخل عليه القسم، فقال (لئن أخرتن) فهو من باب الطلب الضمني وليس من باب الطلب الصريح. وأما قوله (لولا أخرتني) فهو طلب صريح، ففرق تبعا لذلك بين التعبيرين، فصرح بالضمير وأظهر نفسه في الطلب الصريح، وحذف الضمير واجتزأ بالإشارة إليه في الطلب غير الصريح، وهو تناظر جميل، ففي الطلب الصريح صرح بالضمير، وفي الطلب غير الصريح لم يصرح بالضمير[1].

ومن ذلك قوله تعالى: (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن) آل عمران: 20 .

وقوله: (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) يوسف 108 .

فقال في الآية الأولى: (ومن اتبعن) بلا ياء، وقال في الآية الثانية: (ومن اتبعني) بالياء، ذلك أن الآية الأولى في الدخول في الإسلام، قال تعالى: إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب فإن حآجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) آل عمران:١٩ - ٢٠):

وأما الآية الثانية فهي في الدعوة إلى الله وهي خصوصية بعد الدخول في الإسلام.

ولا شك أن الدعوة إلى الله تتطلب علما وبصرا بأحكام الإسلام أكثر من مجرد الدخول في الإسلام، لأنها مقام تبليغ وهذا لا يكون إلا عن علم وبصيرة وخاصة أنه قال (على بصيرة).

---

(١) لمسات فنية (من سورة المنافقون).

ثم إنها تتطلب اتباعا للرسول أكثر في القول والعمل، فإن الذي يقف نفسه للدعوة إلى الله ينبغي أن يكون شديد الالتزام بتعاليم الإسلام والاتباع لرسوله الكريم قولا وعملا حتى يكون مقبولا مجابا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن المذكورين في آية يوسف داخلون في الآية الأولى فهم مسلمون، وأما المذكورون في أية آل عمران فلا يشترط أن يكونوا داخلين في أية يوسف، إذ ليس كل مسلم داعيا إلى الله على بصيرة، وبذا يكون اتباع الرسول في أية يوسف أكثر، فهو يشمل الاتباع الأول وزيادة فكان ذكر الياء فيها

أولى من الاجتزاء بالكسرة، لأن الياء عبارة عن الكسرة وزيادة فلما زاد الاتباع بذكر الياء فوضع كل تعبير في مكانه المناسب والله أعلم. ومن ذلك قوله تعالى: (قال يا نوح إنه ليس من

أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين) هود64)، بحذف الياء من (تسألن). وقوله: (قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) الكهف: ٢٧٠. بذكرها. إن الآية الأولى هى فى سؤال نوح لربه بعد ما غرق ابنه قائلا: (رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) هود:٤٥. فقال له ربه: (قال يا نوح إنه ليس من أهلك....) هود:٤٦). وأما آية الكهف فهى فى اشتراط الخضر على موسى إذ صحبه أن لا يسأله عن شيء حتى يكون هو الذى يخبره. فحذف الياء من أية هود وذكرها فى آية الكهف، وبالنظر فى السياقين يتضح ما يأتى:

١ - فى قصة موسى والخضر أن الخضر كان يتوقع أن يسأله موسي عن كل عمل يقوم به مما لا يدرك حكمته، وأحداث المصاحبة بينهما قائمة كلها على أن الرجل الصالح يعمل أعمالا مستنكرة فيما يرى موسى فيستنكر ويعترض أو يسأل، إذن فالقصة كلها تدور حول ما يفعله الخضر واعتراض موسي، فى حين أنه لم يكن فى قصة نوح إلا سؤال واحد وهو عن شأن ابنه، فاقتضى مقام الإطالة والتفصيل فى الكهف ذكر الياء دون هود.

٢- إن موسى سأل عن ثلاثة أمور مما شاهد فى حين سأل نوح أمرا واحدا، فناسب الإطالة بذكر السؤالات وتعددها أن يذكر الياء فى الكهف.

٣- كان التحذير من السؤال فى هود أشد مما فى الكهف، وقد عقب على سؤال نوح بقوله: (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) هود٤٦ . وليس الأمر كذللك فى الكهف، بل المح إلى أنه سيعلمه حكمة ما يقوم به فيما بعد، فقال: حتى أحدث لك منة ذكرا الكهف70 . فناسب ذلك حذف الياء فى هود إشارة إلى النهى عن أصل الحدث بخلاف ما فى الكهف.

ومن نافلة القول أن نقول: إن السؤال يختلف فى الآيتين، فالسؤال فى الكهف هو سؤال الاستفهام والاستفسار ولذا عداه بعن، فقال: (فلا تسالني عن شيء) أما سؤال نوح فإنه سؤال طلب كما تقول: سألته حاجة ولذلك عداه بنفسه. وقد يكون ذكر الياء وحذفها لغرض آخر قريب مما مر وهو أن يكون ما فيه الياء أوسع وأشمل مما حذفت منه الياء وذلك نحو ما ورد من ذكر ياء المتكلم وحذفها من كلمة (عباد) و (عبادى) فما ذكرت فيه الياء أوسع وأشمل مما حذفت منه، فكأن طول البناء إشارة إلى سعة المجموعة، وذلك نحو قوله تعالى: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) الزمر.٥٣).

فالعباد هنا قاعدة عريضة واسعة، فالذين أسرفوا على أنفسهم هو الأكثرون، قال تعالى: (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) (يوسف. ١٠٣)، وقال: (وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) زالأنعام: 116)، وقال: (وقليل من عبادي الشكور) إسبأ: ١٣ . فذكر الياء. ونحوه قوله تعالى. (وإذا سالك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان

فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون البقرة.١٨٦). فالعباد هنا كثر وهم عموم العباد، فهم إذا سألوه فهو قريب منهم يجيب داعيهم فذكر الباء.
ونحوه قوله تعالى: (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا) (الإسراء ٣ ٥) وهو طلب من عموم عباد الله تعالى أن يقولوا التى هى أحسن وهم مجموعة واسعة من عبأد الله لو تقيد بقيد، وإنما هى مطلقة فذكر الياء. وقوله (يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعيدون كل نفس
ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون) العنكبوت 56- 57) . والمؤمنون أيضا طبقة واسعة، إذ هم لم يقيدوا بغير الإيمان، وقد تقول: ولكنه قال فى مكان أخر. (قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) الزمر.١٠ . والحق أن الفرق بينهما واضح من وجوه منها:
١- أنه قال فى أية الزمر: (قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم) فخصص الذين آمنوا بطلب التقوى فضيق دائرة المؤمنين، وذلك أن عموم المؤمنين أكثر من المتقين، فى حين أنه لم يقيدهم بغير الإيمان فى العنكبوت فهم طبقة أوسع.
٢- طلب فى آية الزمر من المؤمنين التقوى وطلب من آية العنكبوت العبادة، والعبادة أوسع من دائرة التقوى، وبهذا اتسعت الصفة فى آية العنكبوت وشملت جماعة أكبر، فالمتقون أقل ممن يقومون بالعبادات على العموم، فليس كل من يقوم بالعبادة متقيا.
٣- ومما حسن إظهار الياء فى (عبادي) فى العنكبوت، قوله تعالى: (إن أرضي واسعة فأضاف الأرض إلى الياء (أرضي) فالأرض أرضه والعباد عباده، فأظهر ضمير المتكلم فى الموطنين فى السكن والساكن (عبادي). فى حين لم يضفها إلى الياء فى أية الزمر، وإنما قال: (وأرض الله واسعه) وههنا أمر آخر وهو أنه لا يحسن إضافة الأرض إلى ياء المتكلم فى الزمر لأنه ق-ال. (قل يا عباد) فلو قال: (وأرضي واسعة) لأوهم ذلك أن الأرض أرض المبلغ، أى أرض الرسول، فيكون المعني: قل لهم إن أرضي واسعة، فهذا يحتمل أن تكون الأرض لله وأن تكون للرسول، فلما قال. (وأرض الله واسعة رفع هذا الاحتمال بخلاف ما فى آية العنكبوت، فإنه قال فيها: (يا عيادي) ولم يقل (قل يا عبادي).
فإضافة الأرض إلى ياء المتكلم في العنكبوت أنسب، وإضافتها إلى الله فى آية الزمر أنسب، والأرض مما يصح أن تضاف إلى الله وإلى غيره فتقول: أرض فلان وأرض الله، قال تعالى. (وأورثكم أرضهم وديارهم) الأحزاب:٢٧).
4 - ثم إن سعة الأرض مؤكدة فى أية العنكبوت دون آية الزمر، فقد قال: إن أرضي واسعة؟ فوسع مجموعة العباد مناسبة لهذه السعة، فى حين قال فى أية الزمر: وأرض الله واسعة من دون توكيد.

5- قال فى آية الزمر: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)، وقال فى أية العنكبوت. (كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون)، والصابرون قليل ليسوا كثرا فهم جزء ممن يذوقون الموت الذين ذكرهم فى قوله تعالى: (كل نفس ذائقة الموت) فهذه تشكل عباد الله بخلاف أية الزمر. فلما توسعت دائرة العباد فى العنكبوت، قال (يا عبادي) بالياء، فأظهر الضمير، ولما قلل العباد فى الزمر حذف الضمير.

٦ - ذكر ضمير المتكلم مع العبادة مرتين فى العنكبوت، فقال. (فإياي فاعبدون) فالضمير الأول هو (إياى)، والثانى هو (الياء) المحذوفة من (اعبدون) فى حين قال فى الزمر (اتقوا ربكم) من دون ذكر الضمير المتكلم، فلم يقل (فاتقون) ولا (وإياى فاتقون). فناسب ذلك إبراز الضمير مع العباد فى آية العنكبوت دون الزمر.

٧ - قال فى العنكبوت. (إلينا ترجعون» فذكر مرجع الخلق إليه بذكر ضمير المتكلمين فى (إلينا) فناسب ابراز ضمير المتكلم مع العباد، فإن عباده يرجعون إليه

8 - قال فى أية الزمر: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وهذا الجزاء ليس متسعا اتساع ما قال فى العنكبوت وهو (إلينا ترجعون)، فليس كل العباد يوفون أجرهم بغير حساب، ولكنهم كلهم يرجعون إليه فاتسعت الدائرة فى العنكبوت فزاد الياء.

٩ - ثم إن ضمائر المتكلم فى آية العنكبوت أكثر مما فى آية الزمر، فليس فى آية الزمر غير ضمير محذوف دلت عليه الكسرة فى قوله (يا عباد)، فى حين أن فى العنكبوت خمسة ضمائر للمتكلم والمتكلم المعظم نفسه، وفى ضمير المتكلم فى (عبادى)، والضمير فى (أرضي)، والضمير (إياي)، والضمير الذى دلت عليه الكسرة فى (فاعبدون) والضمير المعظم نفسه فى (إلينا). فحسن إبراز الضمير في آية العنكبوت دون آية الزمر.

١٠ - ثم إن لفظ العموم (كل) فى العنكبوت مما حسن إبراز الضمير لأنه يدل على العموم والشمول، إذ اتسعت به دائرة العباد اتساعا شاملا، بحيث لم يستثن أحدا منهم بخلاف ما فى العنكبوت.

١١ - أن سورة الزمر تكاد تكون مبنية على ضمير الغيبة وعلى الالتفات من المتكلم إلى الغيبة، بخلاف سورة العنكبوت فإنها مبنية على ذكر النفس، فإنه بعد أن قال فى الزمر: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) الزمر3 . التفت إلى الغيبة فقال. (فاعيد الله مخلصا له الدين) الزمر:٢ . ولم بقل (فاعبدنى) ثم سار الكلام على هذا النسق، فقال: (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) الزمر٣ . (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانة هو الله الواحد القهار خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى إنه هو العزيز الغفارخلقكم من

نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون (الزمر4-٦) . (إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور) الزمر: ٧. (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل....) الزمر:٨. فقال. (دعا ربه) ولم يقل (دعانا) كما قال فى موطن آخر، ثم انظر التناسب اللطيف بين قوله (دعا ربه) وقوله: (قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم) بذكر (الرب) وهكذا يسير النسق. بل إنه حتى فى قوله: (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة أللهِ) التفت من المتكلم إلى الغيبة، فقال: (لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) ولم يقل: (لا تقنطوا من رحمتى إنى أغفر الذنوب جميعا إننى أنا الغفور الرحيم) وقال فى الآية التى هى مدار البحث. (اتقو ربكم... وأرض الله واسعة) فى حين قال فى العنكبوت: فإن أرضي واسعة فإياي فاعبدون) فبنى الكلام فى الزمر على الغيبة وبنى الكلام فى العنكبوت على المتكلم وإظهار النفس. إن سياق سورة العنكبوت مبنى على المتكلم، كما ذكرت، فقد قال: (ولقد فتنا الذين من قبلهم) العنكبوت:٣. (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) العنكبوت: ٤. (و الذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون) العنكبوت: ٧ . (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) العنكبوت:٨. (لندخلنهم في الصالحين) العنكبوت:٩. (ولقد أرسلنا نوحا) العنكبوت:١٤ . (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) العنكبوت:١٥. (ووهبنا له إسحاق ويعقوب...) إلخ.

ويستمر إلى أن يقول، (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم (العنكبوت.٥١)، (يا عبادي الذين آمنوا) العنكبوت.٥٦. (و الذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا) العنكبوت:٨ ٥. (ليكفروا بما أتيناهم) العنكبوت:٦٦ . (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا) العنكبوت 67 . وختم السورة بقوله: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) العنكبوت:69 . فأنت ترى أن جو السورة وسياق الآيات فى الزمر مبنى على الغيبة فى حين أن سياق العنكبوت مبنى على المتكلم فناسب ذكر ضمير المتكلم وإبرازه فى العنكبوت دون الزمر.

وقد تقول: ولم قال فى الزمر. (قل يا عباد الذين آمنوا) بذكر (قل) ولم يقل مثل ذلك في العنكبوت، بل قال: (يا عبادى الذين أمنوا) من دون (قل)؟.

والجواب أن سياق الآيات فى الزمر مبنى على التبليغ بخلاف ما فى العنكبوت، فإنه مبني على ذكر النفس. فقد أمر بالتبليغ بقوله (قل) فى الزمر أربع عشرة مرة، فقال: (قل تمتع بكفرك

قليلا) الزمر:٨ . و (قل هل يستوي الذين يعلمون) الزمر 9 . و (قل يا عباد الذين آمنوا) الزمر: ١٠ . و (قل إني أمرت أن أعبد الله) الزمر ١١. و (قل إني أخاف إن عصيت ربي) الزمر:١٣. و (قل الله أعبد مخلصا) الزمر:١٤، و (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم) الزمر 15، (قل أفرأيتم ما تدعون) الز مر ٣٨. و (قل حسبي الله) الزمر:٣٨ . و (قل يا قوم اعملوا) الزمر:٣٩. و (قل لله الشفاعة جميعا) الزمر:٤٤. و (قل اللهم فاطر السماوات) الزمر:46 . و (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم)
الزمر53 . و (قل أفغير الله تأمروني أعبد) الزمر64 . فى حين لم يأمره بالتبليغ بقوله (قل) فى العنكبوت إلا ثلاث مرات، وهى قوله : (قل إنما الآيات عند الله) العنكبوت:٥٢ ، و (قل الحمد لله) العنكبوت: ٦٣ فناسب ذكر القول فى الزمر دون العنكبوت. ومما حذف منه ضمير المتكلم قوله، (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) الزمر.١٧- ١٨، فحذف الياء لأنهم قلة، فإنه قيد العباد بالذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فهم لم يكتفوا بالحسن، بل يتبعون الأحسن، ولا شك أن هؤلاء قلة... ثم ذكر أن هؤلاء هم الذين هداهم الله وأنهم أولو الألباب. فحذف الياء لقلة المذكورين نسبيا. هذه إضافة الي فواصل الآى، فإن هذه الآية تقع ضمن مجموعة من الآيات خواتمها تنتهى بنحو هذه الفاصلة، وذلك نحو: (وأولئك هم أولوا الألباب) إلزمر . (أفأنت تنقذ من في النار) الزمر:١٩، (فلا يخلف الله الميعاد) الزمر: ٢٠، وغيرها، حسن حذف الياء من كل وجه، والله أعلم.

٣- ومن ذلك ذكر حرف ألمد (الألف) فى فواصل قسم من الأى وعدم ذكره فى مواطن أخرى، وذلك بحسب ما يقتضيه المقام، وذلك نحو قوله تعالى. (يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا الأحزاب.٦٦ ٦٧ . بمد (الرسول) و (السبيل) مع أن القياس لا يقتضى المد وهو لم يمد (السبيل) فى أول السورة، وإنما قال: (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) والفرق بينهما أن آيتى المد هما من قول أهل النار وهم يصطرخون فيها ويمدون أصواتهم بالبكاء، كما أخبر عنهم ربنا بقوله: (وهم يصطرخون فيها) فـاطر 37. فالمقام هنا مقام صراخ ومد صوت فناسب المد، فى حين أن الآية الأخرى ليست كذلك، وإنما هى قول الله مقررا حقيقة عقلية معلومة، قال تعالى: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل الأحزاب:٤. فالمقام لا يقتضى المد ههنا بخلاف ذلك. ومن ذلك قوله تعالى: (إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا الأحزاب:١٠-١١. فمد (الظنون) وأطلقها، وذلك

لأنهم ظنوا ظنونا كثيرة مختلفة فأطلقها فى
الصوت مناسبة لتعددها واطلاقها، ولو قال (الظنون) لوقف علي الساكن، والساكن مقيد، فناسب إطلاق الألف إطلاق الظنون. والمؤمنون ههنا فى موقف ضيق وخوف شديدين وزلزلة عظيمة، كما أخبر عنهم ربنا فغرتهم الظنون وشرقوا وغربوا فيها فأطلق الصوت مناسبة لاطلاق الظنون وتعددها، هذا علاوة على رعاية الفاصلة. فانت قلت: ولم لم يقل (وتظنون بالله ظنونا) وهى مطلقة أصلا؟ قلنا: كان ذلك لأكثر من سبب. فإن هذا إطلاقه واجب، فلا يفيد أنه أطلق الصوت لإطلاق الظنون ولا أنه أطلقه لنكتة، ثم إن الظنون التى ظنها أصحاب رسول الله معلوم لهم معلومة لله فهى معارف لا نكرات فناسب ذلك التعريف والمد.ومن ذلك ما جاء فى سورة الإنسان: ا(ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا قوارير من فضة قدروها تقديرا) الانسان15- 16 . فأطلق (القوارير) الأولى بالألف وكان حقا ألا تطلق لأنها ممنوعة من الصرف. ومن دواعى ذلك والله أعلم - أنه أطلق الصوت فيها مناسبة لإطلاق جنسها ونوعها، فهو لم يبين نوع القوارير ولا من أى جنس هى فأطلقها لذلك، ولما قيد جنسها فى الآية التى تليها، فقال: (قوارير من فضة) لم يطلقها، هذا علاوة على رعاية الفاصلة فزادها ذلك حسنا على حسن، والله أعلم.

الإبدال

وقد يستعمل القرآن الكريم المفردة أحيانا مبدلةً، وذلك نحو (يتذكر) و(يذّكّر) و(يتدبّر) و(يدّبّر) ،ونحو (مكة) و(بكة)، وبسطة وبصطة، فهل لهذا الإبدال غرض؟

إننا نرى أن كل تغيير في التعبير القرآني مهما كان فله سببه، ولا يكون تغييرٌ من دون سبب. وسنذكر أمثلة توضح هذا الأمر.

- قد ترد الكلمة في التعبير القرآني مبدلةً مدغمةً مرة، ومرة أخرى ترد غيرَ مبدلة، وذلك نحو قوله في آيات عدة: "لعلهم يتذكرون". وفي آيات أخرى: "لعلهم يذّكّرون". ونحو قوله: "أفلا يتدبّرون القرآن" وقوله: "أفلم يدبروا القول"،ونحو قوله: "ويحبُّ المتطهّرين" وقوله: "يحب المطّهّرين". بل ربما جمع الصيغتين في آية واحدة أو آيات متقاربة، وذلك نحو قوله تعالى: "فيه رجالٌ يحبّون أن يتطهّروا والله يحب المُطّهّرين" فجمع بين قوله: "يتطهّروا" وقوله: "المطّهّرين"

إن أصل هذا الإبدال هو الفكُّ بالتاء فـ (ادّبّر) أصله (تدبّر) فأُبدلت التاءُ دالا، وأدغمت في الدال، فسكنت الدالُ الأولى وجيء بهمزة الوصل توصّلا إلى النطق بالساكن. وكذلك (اذّكّر) أصله (تذكر)، و(اطّهّر) أصله (تطهر) والمضارع كالماضي فـ (يدّبّر) أصله (يتدبّر)، و(يذّكّر) أصله (يتذكر)، و(يطّهّر) أصله (يتطهّر) وهكذا. وهو من الإبدال الجائز لا الواجب، ولذا نرى الاستعمالين معا في اللغة وفي القرآن الكريم. والمفسرون إذا أوردوا شيئا من هذا أشاروا إلى أنه مبدل، واكتفوا بهذا على حدِّ ما أعلم.

أما ما يدور في الذهن من سؤال عن الفرق بينهما في الاستعمال القرآني، فالجواب أنه لا بد من أن يكون القرآن الكريم قد فرّق بينهما. فإن القرآن دقيق غاية الدقة في الاستعمال، وهو لا يستعمل لفظتين بمعنى واحد تماما وإن كانتا مترادفتين أو مبدَلَتين وحتى إذا كانتا من لغتين، فهو يخص كلا منهما بمعنى، وذلك كما خص (العيون) بعيون الماء، ولم يستعملها للباصرة، وكما خص (يشاقق) بمقام و(يشاقّ) بمقام مع أنهما لغتان مختلفتان، فخص كل لغة بسياق.

ونعود إلى مسألتنا فنقول: إن هناك حقيقتين لغويتين لا بد أن نذكرهما في هذا الأمر:

الأولى: أن بناء (يتفعّل) أطول من بناء (يفّعّل) في النطق. فـ (يتذكّر) أطول من (يذكر) بمقطع واحد. فـ (يتذكر) مكون من خمسة مقاطع: (يَ + تَ + ذَكْ + كَ + رُ) في حين أن (يذّكّر) متكون من أربعة مقاطع: (يذْ + ذَكْ + كَ + رُ) والحقيقة الثانية أن بناء (يفّعّل) فيه تضعيف زائد على (يتفعل) ففي (يفّعّل) تضعيفان، وفي (يتفعّل) تضعيف واحد.

وهاتان الحقيقتان اللغويتان لهما شأنهما في تفسير ما نحن بصدده. فما كان على وزن (يتفعل) قد يؤتى به في اللغة للدلالة على التدرج، أي الحدوث شيئا فشيئا، وذلك نحو: تخطى وتمشّى وتبصّر وتجسس، فهناك فرق بين (مشى) و(تمشى)، و(خطا) و(تخطى)، و(جسّ) و(تجسس)، ففي تمشى وتخطى من الدرج ما ليس في مشى وخطا.

---

(1) انظر التعبير القرآني 19 .

وقد يؤتى بهذا الوزن للدلالة على التكلف وبذل الجهد نحو: تصبّر وتحلّم، أي: كلف نفسه وحملها على الصبر والحلم. وفي كلا المعنيين دلالة على الطول في لوقت والتمهل في الحدث. وكذلك الأمر في القرآن الكريم. فإذا اجتمعت صيغتان من هذا البناء (يتفعّل) و (يفّعل) استعمل (يتفعل) لما هو أطول زمنا من (يفّعّل) وذلك لأن الفك أطول زمنا في النطق كما ذكرنا فهو ملائم للطول في الحدث. ومثل هذا التناسب وجدناه في أمور عدة في اللغة: فهناك تناسب بين البناء والمعنى إلى حد كبير. ويكفي أن تعود في مثل هذا إلى باب (إمساس الألفاظ أشباه المعاني) في كتاب الخصائص[1] لابن جني ليتضح لك هذا.
وما كان على وزن (يفّعّل) يأتي به لقرآن فيما يحتاج إلى المبالغة في الحدث، وذلك لأن التضعيف كثيرا ما يؤتى به للمبالغة نحو فَعَل وفعّل كـ (قطع) وقطّع)، و (كسر) و(كسّر)، ففي قطّع وكسّر من المبالغة ما ليس في قطع وكسر. ونحو (فُعال) و(فُعّال) مثل (كُبار) و(كُبّار)، فـ (كبّار) أبلغ من (كبار) في الاتصاف بالحدث كما هو مقرر في كتب اللغة فتكرار الحرف إشارة إلى تكرار الحدث. جاء في (الخصائص): "ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلا على تكرير الفعل، فقالوا: كسّر وقطّع وفتح وغلّق[2] .
ومن ذلك في غير الأفعال ونا التوكيد الثقيلة والخفيفة، فإن الثقيلة آكدُ من الخفيفة، ونحو (إنّ) غير المخففة و(إنْ) المخففة، فغير المخففة أكدُ من المخففة.
وهكذا يفرق القرآن بين الصيغتين.

---

(1) الخصائص 2/15 وما بعدها .
(2) الخصائص 2/155 .

وعلى هذا فإنه يستعمل بناء (يتفعّل) لما هو أطول زمنا، وقد يستعمله في مقام الإطالة والتفصيل. ويستعمل (يفّعّل) للمبالغة في الحدث والإكثار منه. ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ"

(الأنعام:42) وقوله: "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ" (الأعراف:94) فقال في آية الأنعام (يتضرّعون) وقال في الأعراف (يضّرّعون) بالإبدال والإدغام. وذلك أنه قال في الأنعام: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ"، وقال في الأعراف: " وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ" والأمم أكثر من القرية، وهذا يعني تطاول الإرسال على مجار التاريخ، فلما طال الحدث واستمر جاء بما هو أطول بناء فقال: (يتضرعون). ولما كان الإرسال في الأعراف إلى قرية قال (يضّرعون) فجاء بما هو أقصر في البناء.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه استعمل في آية الأنعام (أرسل إلى) فقال: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ"، واستعمل في الأعراف (أرسل في) فقال: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ"

والإرسال إلى شخص ما يقتضي التبليغ ولا يقتضي المكث، فإنك قد ترسل إلى شخص رسالة فيبلغها ويعود، وأما الإرسال في القرية أو في المدينة فإنه يقتضي التبليغ والمكث، فإن (في) تفيد الظرفية، وهذا يعني بقاء النبي بينهم يبلغهم ويذكرهم بالله، ويريهم آياته المؤيدة. ولا شك أن هذا يدعوهم إلى زيادة التضرع والمبالغة فيه، فاء بالصيغ الدالة على المبالغة في الحدث والإكثار منه فقال: لعلهم فوضع كل مفردة في مكانها اللائق بها. ونحو ذلك قوله تعالى إقالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئن ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين» يوسف٨٨.

وقوله: (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما الأحزاب.٣٥). وقوله: (إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم) الحديد:١٨. فقال فى أية يوسف: (المتصدقين) وقال فى أية الأحزاب: (المتصدقين والمتصدقات) غير أنه قال فى أية الحديد: (إن المصدقين والمصدقات) بالإبدال والإدغام. وقد ناسب كل تعبير موطنه. ففى آية يوسف قال: إن الله يجزي المتصدقين ولم يقل (المصدقين) لأكثر من سبب:

منها أنه مناسب لقوله (وتصدق علينا) . ومنها أنهم طلبوا التصديق ولم يطلبوا أن يبالغ لهم فى الصدقة، وذلك من حسن أدبهم.

ومنها أنه لو قال. (إن الله يجزى المصدقين) لأفاد ذلك أن الله يجزى المبالغين فى الصدقة دون من لم يبالغ. وهذا غير مراد فإن الله يجزى على القليل والكثير وهو يجزى المتصدق والمصدق، فقوله: (إن الله يجزي المتصدقين) يدخل فيه المصدقون، ولو قال: (يجزى المصدقين) لم يدخل المقلون فى صدقاتهم، والله أعلم.

وأما ما ورد فى الأحزاب، فقد جاء بها على الأصل من غير إدغام، وذلك للتفصيل فى الصفات

وتعدادها والإطالة فى ذكرها، فناسب الفك وليشمل عموم أصحاب الصدقة.
وأما ما فى أية الحديد، فإنه ذكر المبالغين فى الصدقات وذكر أنه يضاعف لهم، ولهم أجر كريم، وكل اقتضى مكانه، فانه ذكر من بالغ فى الصدقة فى سورة الحديد لأنه تكرر فيها ذكر الإنفاق والنهى عن البخل، فناسب ذكر المبالغة فى الصدقة. فقد قال: (و أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) الحديد: ٧ .
رقال: (وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والارض) الحديد: ١٠ . وقال: (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) الحديد:10 . وقال: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم) الحديد: ١١. وقال: (إن المصدقين والمصذقات) الحديد.١٨ . وقال: (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد) الحديد:٢٤ . فى حين لم يرد ذكر الإنفاق والصدقات فى سورة الأحزاب على طولها وهى ثلاث وسبعون أية عدا ما ورد فى هذه الآية التي جمعت عددا من صفات أهل الإيمان. وقوله مخاطبا نساء النبى: (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة) الأحزاب: ٣٣ . فناسب ذكر المبالغين فى الصدقات فى الحديد دون الأحزاب، والله أعلم. ومن ذلك قوله تعالى. (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) النساء ٨٢ .
وقوله: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) إمحمد 24 . فى حين قال: (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين) المؤمنون ٦٨ . فقال فى الآيتبن الأوليين (يتدبرون) وقال فى الأية الأخرى (يدبروا) ذلك أن المقام فى الآيتين الأوليين يحتاج إلى طول التدبر والتأمل، وأن المقام فى الآية الأخرى يحتاج إلى عمق فى التدبر ومبالغة فيه. وأعنى بطول التدبر والتأمل التدبر العقلى الطويل الذى يؤدى إلى القناعة العقلية عن طريق النظر فى الحج والاسدلال العقلى. وأعنى بعمق التدبر والمبالغة فيه التدبر القلبى الذى يحمل الإنسان على الانتفاض للعمل بمقتضى ما يؤمن به العقل ويسلم بصحته، فهو هزة إيمانية عنيفة تنبعث من الأعماق تصحح ما ينبغى تصحيحه من اعتقاد أو سلوك. وإليك إيضاح ذلك:
قال تعالى فى آية النساء: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) النساء: ٨٢ . فالنظر فى القرآن وتخريج ما يبدو مختلفا لأول وهلة يحتاج إلى طول تدبر وتأمل، فطول التأمل والنظر ههنا متأت من ناحيتين.
١ - من ناحية أن النظر شامل للقرأن كله على وجه العموم، وليس فى قسم منه (أفلا يتدبرون القرآن) .
٢- من ناحية النظر فى عدم الاختلاف بين آياته وتخريج ما يبدو مختلفا، فجاء لذلك بلفظ (يتدبر). فهذا يراد به التدبر العقلى والنظر الاستدلالى، والله أعلم. وقال فى أية (محمد): (أفلا يتديرون القرآن أم عنى قلوب أقفالها) محمد: 24 . وهذا يحتاج إلى طول تدبر ونظر أيضا،

وذلك أن قبل هذه الآية قوله تعالى: (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) محمد: ٢٣) . فهم مصابون بالصم والعمى وعلاوة على ذلك أن قلوبهم مقفلة (أم على قلوب أقفالها) والمصاب بالصم والعمى محتاج إلى تكرار التذكير وتطاوله للوصول إلى الإدراك الصحيح والفهم السليم، كما أن القلوب المقفلة تحتاج إلى طرق كثير والى تكرار محاولات الفتح لتفتح. فهذه الأوصاف تستدعى طول التدبر والنظر.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه قال: (أفلا يتدبرون القرآن) فجعل القرآن كله موضوعا للتدبر وليس قسما منه فزاد ذلك فى وقت التدبر وأمده، فطول التدبر متأت من ناحيتين أيضا:

١ ـ من ناحية الأوصاف التى تستبعد الفهم.
٢ـ من ناحية كثرة المتدبر وهو القرآن الكريم كله. ثم إن التدبر ههنا عمل عقلى كما يبدو، فقد ذكر أن السبل التى توصل العقل إلى الحكم الصحيح معطلة، فالسمع معطل، والبصر معطل، والقلوب مقفلة، فكيف يصل العقل إلى الحكم السليم؟ فى حين قال فى أية أخرى: (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين) المؤمنون.٦٨).
ولم يقل (يتدبروا) وذلك أنه أخذهم على عدم مضاعفة التدبر وعدم المبالغة فيه من ناحية، وآخذهم من ناحية أخرى على عدم إعمال قلوبهم فى التدبر، فهم محتاجون إلى تدبر يوقظ ويحيى مواتها. والدليل على أن التدبر هنا عمل قلبى لا عمل عقلى أن هؤلاء كما أخبر الله عنهم يعرفون رسولهم ولا ينكرونه (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون)
(المؤ منون: 69 . وذكر أن هؤلاء كارهون للحق وأنهم لا يعملون بمقتضاه وإن عرفوه: (بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون المؤمنون:٧٠) وأنهم متبعون للهوى لا لحكم العقل والمنطق: (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن) المو منون:٧١).
فهم إذن لا يحتاجون إلى طول تدبر للوصول إلى معرفة الحق فهم يعرفون
الحق، ويعرفون رسولهم، غير أنهم كأرهون للحق متبعون للهوى، فهم محتاجون إلى ما يشفى قلوبهم من كراهية الحق واتباع الهوى. فاقتضى هذا التدبر القلبى لا العقلى.
هذا علاوة على أنه قال: (أفلم يدبروا القول) ولم يقل: (أفلم يدبروا القرآن) كما قال في الآيتين الأخريين، والقول قد يشمل الآية والآيتين منه فدعاهم إلى تدبر القول، وهذا يتطلب وقتا أقصر من تدبر عموم القرآن، فلما قصر من المتدبر قصر من التدبر، ولما أطال فى الآيتين الأخريين فجعله القرآن كله أطال البناء، والله أعلم.
ونحو ذلك قوله تعالى: (وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى) الليل:17- 18 . وقوله: (وما يدريك لعله يزكى) عبس:٣ . فقال فى الآية الأولى: (يتزكى) وقال فى الآية الثانيـة: (يزكى) بالإبدال والإدغام. ذلك أن الآية الأولى فى إيتاء المال وهو مستمر متطاول مدى العمر، فجاء بالصيغة الطويلة للدلالة على الطول فى الزمن، فى حين أن الثانية فى الأعمى الذى جاء يسأل رسول الله فاعرض عنه فعاتبه الله على ذلك بقوله: (عبس وتولى أن جاءة الأعمى وما يدريك لعلة يزكى) عبس: ١ -٣ . ولا شك أن مدة هذا الفعل أقصر من مدة إيتاء المال، ذلك لأنه جاء يستفهم أو يسترشد فى وقت من الأوقات فيزكى قلبه بذاك. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن التزكى الأول مقرون بإيتاء المال، وأن
التزكى الثانى مقرون بالخشية وطلب الذكر النافع: (وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى)عبس:٨- ١٠ . والخشية أمر قلبى. فاستعمل (يتزكى) لما هو طويل الأمد ودال على التدرج ولما اقترن بإيتاء المال، واستعمل (يزكى) لما هو عمل قلبى مقرون بالخشية والسعى

إلى الذكر، وهو نظير ما ذكرناه فى يتدبر ويدبر. ومن ذلك قوله تعالى: (ويسالونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين البقرة) ٢٢2 ، وقوله: (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) التوبة: 107 . فقال فـى أية البقرة: (يحب المتطهرين) وقال فى آية التوبة: (يحب المطهرين) ذلك أن الآية الأولى فى الطهر من الحيض والتطهر منه، وهو متكرر متطاول فى العمر، فجاء به على صيغة الفك لأنها أطول.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن التطهر فى الأولى أمر بدنى بالنسبة إلى النساء والرجال، فالنساء ينبغى أن يتطهرن من الحيض، والرجال ينبغى أن يعتزلوا النساء حتى يتطهرن. وأما الآية الثانية، فالتطهر فيها منظور إلى التطهر القلبى أولا، ذلك لأنها نزلت فى المنافقين الذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا
لمن حارب الله ورسوله وهذا من فساد الباطن وسوء السريرة ودنس القلب، وقد قال الله فيهم وفى أضرابهم من المنافقين: (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) البقرة:١٠ . فأمر الله رسوله بترك هذا المسجد وعدم القيام فيه وطلب منه القيام فيما أسس على التقوى.. ثم ذكر بإزاء أولئك المنافقين أصحاب القلوب الدنسة رجالا آخرين وهم أصحاب القلوب الطاهرة المنيبة إلى ربها؛ فقـال فيهم: (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ومعناه أنه يحب الذين يبالغون فى التطهر.

فاستعمل التطهر فى الآية الأولى أعنى آية البقرة للبدنى واستعمله فى الآية الثانية للقلب وهو أبلغ. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الآية الأولى فى عموم المؤمنين
والمؤمنات إلى يوم الدين، وأن الثانية فى صحابة رسول الله. فاستعمل الأبلغ للصحابة، لأنهم أكمل الناس طهارة ظاهر وباطن، واستعمل الصيغة الطويلة فى المدة المتطاولة.

وهذا نظير ما مر من قوله يتزكى ويزكى ويتدبر ويدبر. وقد تقول ولكنه قال: (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) فجاء بالفك ولم يقل (يطهروا) ونقول: إن الله جمع لهم بين التطهرين: التطهر فى القلب والتطهر فى البدن، وذلك أبلغ وأمدح من أن يذكرهما بنوع واحد، فإنه يحب المتطهرين جميعا. ونحو ذلك ما استعمله القرأن الكريم فى (يتذكر) و (يذكر) فاستعمل (يتذكر) للتذكر العقلى ولما كان يحتاج إلى طول وقت. واستعمل (يذكر) لما كان فيه هزة للقلب وإيقاظ له ولما كان فيه مبالغة وقوة فى التذكر، فقال مثلا، (فإذا جاءت الطامة الكبرى يوم يتذكر الإنسان ما سعى) النازعات: ٣٤، ٣٥، وهذا تذكر عقلى لما عمله الإنسان فى حياته، وما

عمله يستغرق عمره كله، فهو تذكر يستغرق وقتا طويلا، لأنه تذكر لما سعاه فى حياته وهو تذكر عقلى وليس تذكرا قلبيا يدفعه إلى أن يعمل شيئا آخر ينفعه. ونحوه قوله تعالى: (وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى) الفجر. ٢٣ . وهذه الآية نظيرة الآية السابقة، فاستعمل (يذكر) فيها أيضا. ونحوه قوله تعالى. (وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) فاطر:.٣٧ . أى بقيتم فى الدنيا مدة طويلة فيها كفاية للتذكر، ولكنكم لم تتذكروا، وقال: (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن فو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب) الر عد: ١٩. وهو تذكر يقوم على المحاكمة العقلية، والمقصود بالآية: أفمن يعلم كمن لا يعلم؟

ونحو قوله تعالى: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما . يتذكر أولوا الألباب) الزمر:9 . وهذه الآية نظيرة الآية السابقة فى المفاضلة بين الذى يعلم والذى لا يعلم وهو أمر عقلى، فجاء ب(يتذكر) أيضا، والعلم يحتاج إلى النظر الطويل والتدرج فى المعرفة. ونظيره قوله تعالى: (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة

أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (إبر اهيم:٤ ٢، ٢٥ . والخلوص من المثل إلى موطن الحكمة والاتعاظ، وعقد الصلة بين المثل والواقع كل ذلك يحتاج إلى طول تذكر وتأمل ومحاكمة عقلية، فاستعمل (يتذكرون) له .

ونحوه قوله تعالى: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) االزمر:27- 29 . وهو نظير الآية السابقة، إذ أن فيه من المثل المضروب ما يحتاج إلى محاكمة عقلية وطول نظر، ولذا عقب بعد ضرب المثل بقوله: الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون فنفى العلم عن أكثرهم. والوصول إلى العلم أمر عقلى يكون بالتعلم والنظر، وهو نظير آيات العلم السابقة، فاستعمل (يذكرون) كما استعمله فى الأيات السابقة. غير أنه قال: (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) الأنفال55- 57 . وهؤلاء مرضى قلوب يعاهدون ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة، فهم يحتاجون إلى هزة قلبية عنيفة وإلى وسط يقرعهم وإلى عمل يذكرهم ويبالغ فى تذكيرهم ليرتدعوا، فالمطلوب تذكر قلبى يرهبهم ويرعبهم، لأن هؤلاء لم ينتفعوا بالعقل فإنهم أبطلوا عقولهم، ألا ترى أنه سماهم دواب، بل سماهم شر الدواب؟ فاستعمل (يذكرون) الدال على المبالغة فى التذكر والعمق فيه. ونحوه قوله تعالى: (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول

أيكم زادته هذه
إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) التوبة: ١٢٤ -١٢٦). وهذه الآية نظيرة الآية السابقة، فهى فى مرضى القلوب ألا ترى أنه قال. (وأما الذين فى قلوبهم مرض) وذكر أن الآيات المنزلة تزيدهم رجسا إلى رجسهم فهم يحتاجون إلى يقظة قلبية وهزة نفسية شديدة وتذكر قلبى عميق يوقظهم، فاستعمل (يذكرون) لذلك.
وقال: (ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا) الإسراء: 41 . وهذه الآية نظيرة آية التوبة السابقة ألا.ترى أنه ذكر أن القرآن ما يزيدهم إلا نفورا، كما يزيد أولئك رجسا إلى رجسهم؟ وهذا أمر قلبى أيضا، فهم محتاجون إلى تذكر قلبى يوقظهم، فاستعمل (يذكروا) كما استعمله فيما مر. وقال: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الالباب (أل عمران: 7 . لقد ذكر فى هذه الآية أناسا فى قلوبهم زيغ يبتغون الفتنة ولا يريدون الوصول إلى الحق وهؤلاء نظير أولئك من مرضى القلوب، فهم محتاجون إلى يقظة قلبية وإلى شبفاء يشفى قلوبهم مما ألم بها من داء، وإن حاجتهم إلى إصلاح قلوبهم أكثر من حاجتهم إلى إصلاح عقولهم.
ومن ذلك قوله تعالى: (قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم) يس: 18 . وقوله: (قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم
تفتنون وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنة وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون) النمل.٧ ٤ -٠ ٥ . فقال فى يس: (تطيرنا) وقال فى النمل (إطيرنا) ذلك أن التطير فى النمل أشد مما فى يس بدليل أنهم قالوا فى يس: (لئن لم تنتهوا لنرجمنكم) فهددوهم بالرجم والتعذيب. أما فى النمل فقد أقسموا وتعاهدوا على قتله وقتل أهله، ومعنى ذلك أن التطير بلغ عندهم درجة أكبر وأشد مما فى يس، فجاء بما فيه زيادة مبالغة. ومن الإبدال قوله تعالى. (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) يس 49- 50 . وأصل (يخصمون) يختصمون، فأبدلت التاء صادا وأدغمت فى الصاد، فصار (يخصمون) والتضعيف يفيد القوة والتكثير والمبالغة كما ذكرنا، فأفاد ههنا المبالغة فى الاختصام، والمعنى أن الساعة تأخذهم وهم منهمكون فى معاملاتهم منشغلون فى خصومات الدنيا على أكثر ما يكون وأشد ما يكون غير منشغلين بشىء أخر عن الدنيا،

فالساعة لأ تقوم على رجل يقول: لا إله إلا الله، وفى الحديث: «شرار الخلق الذين تدركهم الساعة وهم أحياء» فتصبح للساعة صيحة تقطع الاختصام، فلا يكون نبس ولا حركة ولا خصومة ولا كلام، بل صمت مطبق وسكون مطلق فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون فعبر عن ذلك بقوله: (يخصمون) ولا يدل الأصل (يختصمون) على هذه المبالغة والقوة. جاء فى (البحر المحيط) فى هذه الآية: "وهذه هى النفخة الأولى تأخذهم فيهلكون وهم يتخاصمون فى معاملاتهم وأسواقهم فى أماكنهم من غير إمهال لتوصية ولا رجوع إلى أهل، وفى الحديث: تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى تقوم)[1] . فى حين قال: (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) الزمر: ٣١ . من غير إبدال، ذلك أن الاختصام أمام رب العالمين لا يكون مثل الاختصام فى الدنيا، فالاختصام فى الدنيا عام يشمل المخاصمات التى تستدعى القضاء والفصل بين المتخاصمين كما يشمل غيرها مما لا يستدعى قضاء ولا فصلا. أما الاختصام عند الرب فهو مما يستدعى القضاء والفصل، فبالغ في البناء فيما استعمله فى الدنيا بخلاف ما استعمله فى الآخرة، والله أعلم. ٢ - وقد يستعمل كلمة فى موطن ثم يستعملها فى موطن آخر مبدلا فيها حرف، وذلك نحو مكة وبكة واللآتى واللآئى وبصطة وبسطة ونحوها، وكل ذلك لغرض، فقد قال تعالى: (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) آل عمران:96- 97 . وقال: (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا) الفتح 24 . فقال في آية آل عمران: (بكة) وقال فى الفتح: (مكة) "وسبب إيرادها بالباء فى آل عمران ان الآية فى سياق الحج (ولله على الناس حج البيت) فجاء بالاسم (بكة) من لفظ (البك) الدال على الزحام لأنه فى الحج يبك الناس بعضهم بعضا، أى يزدحم بعضهم بعضا، وسميت (بكة) لأنهم يزدحمون فيها (انظر مفردات الراغب،٥٧).

---

(١) البحر المحيط ٣٤٠/٧.

وليس السياق كذلك فى آية الفتح، فجاء بالاسم المشهور له، أعنى (مكة) بالميم فوضع كل لفظ فى السياق الذى يقتضيه والله أعلم[1] . ومن ذلك استعمال اللآتى واللائى.

قال تعالى: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم) الأحزاب 4. وقال: (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللئي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور) المجادلة: ٢. وقال:

(واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) الطلاق ٤.
فقال فى كل ذلك (اللائى) بالهمز. فى حين قال: (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) النساء:١٥ . وقال: (أحرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سف إن الله كان غفورا رحيما) النساء 23 .

---

(١) التعبير القرآنى ١٥٢.

وقال: (وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم) يوسف 50 . وغير ها. ومن الملاحظ فى استعمال هاتين الكلمتين أنه استعمل (اللآئى) بالهمزة فى حالتى الظاهر والطلاق ولم يستعملها فى غيرها، وكان ذلك لثقل الهمزة، فاستعمل الهمزة لثقلها للحالات الثقيلة والنادرة وهى حالات المفارقة. ومن الطريف أن بناء (اللآئى) وجرسها يوحى بذلك، فكأنها مشتقة من اللأى وهو الإبطاء والاحتباس والجهد والمشقة والشدة. والمظاهر والمطلق محتبس عن امرأته مبطئ عنها، وفى ذلك ما فيه من الجهد والمشقة والشدة للطرفين، فانظر حسن المناسبة فى اللفظ والمعنى والاستعمال. ومن ذلك إبدال السين صادا في لفظتي : بصطة ويبصطأما كلمة بصطة بالصاد فقد وردت في سورة الأعراف في قوله تعالى : "وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصطَة"(الأعراف: من الآية69) ووردت في سورة البقرة بالسين وهو قوله تعالى: " وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ"(البقرة: من الآية247) وقد ذكرنا في التعبير القرآني أن ذلك لأمر إحصائي وثمة أمر معنوي وهو أنها وردت بالسين في وصف طالوت : "قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ "(البقرة: من الآية247)ووردت بالصاد في وصف قبيلة عاد قوم هود. قال تعالى :"واذكروا إذ جَعلكم خُلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون" (الأعراف:69) وطالوت إنما هو شخص واحد، وأما عاد فهي قبيلة ومن المعلوم أن الصاد أقوى من السين وأظهر [1] . فكان السين الذي هو أضعف أليق بالشخص الواحد والصاد الذي هو أقوى وأظهر أليق بالقبيلة وأما كلمة (يبصط) بالصاد فقد وردت في قوله تعالى: "والله يقبض ويبصط وإليه ترجعون" البقرة وسائر ما في القرآن (يبسط) بالسين في أكثر من عشرة مواضع، وذلك أن البسط في آية البقرة مطلق عام لا يخص شيئا دون شيء، وفي غيرها مقيد ولا شك أن البسط المطلق أقوى من المقيد، فهو يحتمل البسط في الرزق وفي الأنفس وفي الملك وغيرها، فجاء في الأقوى بالصاد وفي المقيد بالسين.

جاء في (البرهان) "فصل في حروف متقاربة تختلف في اللفظ لاختلاف المعنى. مثل: "وزاده بسطة في العلم والجسم" و "وزادكم في الخلق بصطة" "يبسط الرزق لمن يشاء" "والله يقبض ويبصط" فبالسين السعة الجزئية كذلك علة التقييد، وبالصاد السعة الكلية بدليل علو معنى الإطلاق، وعلو الصاد مع الجهارة والإطباق" [2]

وجاء في البحر المحيط في قوله: "والله يقبض ويبصط" "أي يسلب قوما ويعطي قوما، أو يقتر ويوسع. قاله الحسن. أو يقبض الصدقات ويخلف البذل مبسوطا، أو يقبض أي: يميت لأن مَن أماته فقد قبضه، ويبسط: أي يحييه لأن مَن مد له في عمره فقد بَسَطه، أو يقبض بعض القلوب فلا تنبسط ويبسط بعضها فيقدم خيرا لنفسه أو يقبض بتعجيل الأجل ويبسط

بطول الأمل، أو يقبض بالحظر ويبسط بالإباحة

---

(1) انظر الخصائص 2/161.
(2) البرهانه 1/492- 430 .

أو يقبض الصدر ويوسعه. أو يقبض يد من يشاء بالإنفاق في سبيله، ويبسط يد من يشاء بالإنفاق.. أو يقبض الصدقة ويبسط الثواب" [1] وغير ذلك وجاء في (فتح القدير) "هذا عام في كل شيء فهو القابض الباسط. والقبض التقتير، والبسط التوسيع" [2] وقيل: يقبض الصدقة ويخلفها، وقيل يبسط عليك وأنت ثقيل عن الخروج لا تريده، ويقبض عن هذا وهو يطيب نفسا بالخروج ويخف له [3] فأنت ترى مقدار الإطلاق في القبض والبسط ههنا بخلاف ما ورد في الآيات لأخرى. فإنه مقيد بالرزق في عشرة مواضع ومقيد بغيره في مواضع أخرى قل تعالى: (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) الرعد: 26 . وقال: (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) العنكبوت.٦٢ . وقال: (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) الإسراء:٣٠ . وقال: (أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) الروم:٣٧ . وقال: (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعطة كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء) الروم:٤٨ . فالبسط فى غير آية البقرة مقيد كما ترى، فجاء للمقيد بالسين وللمطلق الذى هو أقوى وأعم بالصاد. ومن ذلك إبدال الواو ياء والضمة كسرة، كما فى (عتو) و (عتي) فقد استعمل مرة (عتو) ومرة (عتى) وذلك كما فى قولة تعالى: (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا) مريم:69 .

---

(1) البحر المحيط ٢٥٣/٢.
(2) فتح القدير ٢٣٤/١.
(3) انظر فتح القدير ٢٥/١.

وقوله: (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتوا كبيرا) الفرقان.٢١ . فاستعمل (عتى) فى مريم و (عتى) فى الفرقان، وهما مصدران للفعل (عتا يعتو) والكثير (عتو)، وقد نرى أن ذلك. للفاصلة فى مريم، إذ أن (عتي) أنسب مع فواصل مريم، غير أن هذا الاختيار له دلالة أخرى، وذلك أن الواو كما هو مقرر أثقل وأقوى من الياء وإن الضمة أثقل وأقوى من الكسرة لما فيهما من الجهد العضلي، وعلى هذا ف(عتو) أثقل من (عتى) واقوي. ومن النصين القرآنيين نلاحظ أن اتصاف المذكورين بالعتو

فى الفرقان أشد مما فى مريم فاختار لهم اللفظ الأثقل والأقوى، وذلك:
١ - أنه ذكر أنهم لا يرجون لقاء الله، أى هم ممن يكفرون باليوم الأخر.
٢ - أنهم طالبوا ليؤمنوا إنزال الملائكة عليهم وهم لم يكتفوا بملك واحد فهم أشد كفرا ممن قال الله فيهم انهم قالوا: (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) الفرقان: ٧، فهم يريدون إنزال الملائكة لا ملك واحد، وإن الإنزال يكون عليهم لا إليه كما طلب الآخرون.
٣- فإن لم تذزل عليهم الملائكة فينبغى أن يروا ربهم ليصدقوا بالرسول وإلا فلن يصدقوا.
٤ - ذكر أنهم استكبروا فى أنفسهم أى رأوا أنفسهم كبيرة.
٥- وذكر أنهم عتوا عتوا كبيرا، فأكد الفعل بالمصدر ووصفه بالكبر، فى حين قال فى أية مريم: (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا) . والمذكورون فى الفرقان هم من هؤلاء المذكورين فى مريم، بل من أشدهم.
٦ - ذكر فى مريم أنه لينزعن من كان أشد على الرحمن عتيا، فخص العتو على الرحمن فى حين أطلق العتو فى الفرقان ولم يقيده بشىء فهم عتاة على الرحمن و علي خلقه.
هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن العتو على الله لا ينال منه شيئا بخلاف العتو على البشر، إذ ما قيمة العتو على الله وما أثره عليه؟ إنه تكبر مضحك، ولذلك جعل أخف العتوين ما كان خاصا وأثقلهما ما كان عاما، وهذا نظير ما مر فى بصطة وبسطة، والله أعلم.

فعَّل وأفعل بمعنى

قد يرد فى القرآن الكريم فَعّل وأفعل بمعنى واحد أو كأنهما بمعنى واحد، مثل: نجّى وأنجى، ونبّأ وأنبأ، ونزّل وأنزل، ونحن نحاول أن نتلمس الفرق بينهما فى الاستعمال القرآنى. إن (فعّل) يفيد الكثير والمبالغة[1] غالبا نحو قطع وفتّح وكسّر وحرّق وسعّر، قال تعالى: (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيرا) الإسراء: ٩٠، ٩١ . فقال فى الينبوع (تفجر) بالتخفيف، وقال فى الأنهار (تفجّر) بالتضعيف للكثرة، وقد يخرج هذا المثال - أعنى مثال فعل عن التكثير إلى معان أخرى كالتعدية، نحو: فرحته، والنسبة الى أصل الفعل، نحو: فسقه وكفره، أى نسبه إلى الفسق والكفر وغير ذلك، من المعاني[2] . ومن مقتضيات التكثير والمبالغة فى الحدث استغراق وقت أطول وأنه يفيد تلبثا أو مكثا، ف(قطّع) يفيد استغراق وقت أطول من (قطع) و (فتّح) يفيد استغراق وقت أطول من (فتح) وفى (علّم) من التلبث وطول الوقت فى التعلم ما ليس فى (أعلم) تقول: (أعلمت محمدا خالدا مسافرا) وتقول: (علّمته الحساب) ولا تفول. (أعلمته الحساب) وكذلك عوّد وقوم فإن فى (قوّم) من المبالغة فى التقويم ما ليس فى (أقام) فإن أقامة الجدار مثلا لا تقتضى مبالغة وتلبثا كتقويمه، قال تعالى: (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه) الكهف: ٧٧، ولم يقل فقومه، فإنه أراد أن يحفظ من الهدم باقامته وليس قصده التسوية والتقويم.

---

(١) انظر مفردات الراغب ٤٨١ (نبأ)، بصائر ذوى التمييز ٢١٢/١ (نجى) ٤٣١/١ (نزل).
(٢) انظر شرح الرضى على الشافية ٩٢/١ وما بعدها.

ومن الاستعمال القرآنى لفعّل وأفعل نحو (كرّم وأكرم) فإنه يستعمل (كرم) لما هو أبلغ وأدوم، فمن ذلك قوله تعالى: (ولقد كرمنا يني آدم) الإسراء: ٧٠ . وهذا تكريم لبنى أدم على وجه العموم والدوام، وقوله على لسان إبليس فى (قال أرأيتك هذا الذي كرمت على) الإسراء: ٦٢ . أى فضلته على، فى حين قال: كلا بل لا تكرمون اليتيم» (الفجر: ١٧)، وقال، (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمة فيقول ربي أكرمن) الفجر. ١٥) وهو يقصد إكرامه بالمال.
فاستعمل التكريم لما هو أبلغ وأدوم وأعم. وكاستعمال (أوصى) و (وصى) فهو يستعمل (وصّى) لما هو أهم لما فيه من المبالغه فهو يستعمل (وصّى) للأمور المعنوية ولأمور الدين،

ويستعمل (أوصى) للأمور العادية، وذلك نحو قوله تعالى: (ووصينا الإنسان بوالديه) العنكبوت.٨ ، وقوله: (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب)البقرة:١٣٢ ، (ذلكم وصاكم به) الأنعام:151 . فى حين قال: (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) النساء: ١١، ولم يستعمل (أوصى) فى الأمور المعنوية وأمور الدين، إلا فى قوله تعالى: (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) مريم: ٣١ ، وذلك لاقتران الصلاة بالزكاة. ومنه استعمال (نزّل وأنزل)، فقد ذهب جماعة إلى أن (أنزل) يفيد التدرج والتكرار، وأن الإنزال عام، وقيل: إن ذلك هو الأكثر وليس نصا فى أحد المعنيين،

قيل: "ولذلك سمى الكتاب العزيز تنزيلا لأنه لم ينزل جملة واحدة، بل سورة سورة وأية، وليس نصا فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة» الفرقان: 32 . وقوله: (إن نشا ننزل عليهم من السماء آية) (الشعراء: 4[1] وجاء فى (ملاك التأويل) فى قوله تعالى: (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة الإنجيل)آل عمران: ٣: "أن لفظ (نزل) يقتضى التكرار لأجل التضعيف، تقول (ضرب) مخففا لمن وقع منه ذلك مرة واحدة، ويحتمل الزيادة، والتقليل أنسب وأقوى، أما إذا قلنا (ضرب) بتشديد الراء، فلا يقال إلا لمن كثر ذلك منه، فقوله تعالى: (نزل عليك الكتاب) يشير إلى تفصيل المنزل وتنجيمه بحسب الدواعى، وأنه لم ينزل دفعة واحدة، أما لفظ (أنزل) فلا يعطى ذلك إعطاء (نزل) وإن كان محتملا، وكذلك جرى احوال هذه الكتب، فإن التوراة إنما أوتيها موسى عليه السلام جملة واحدة في وقت واحد... أما الكتاب العزيز، فنزل مقسطا من لدن ابتداء الوحى... وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله) وهو القرأن، ثم قال: (و الكتاب الذى أنزل من قبل) والمراد التوراة[2] . والذى يبدو أن استعمال (نزّل) قد يكون للتدرج والتكثير، وقد يكون للاهتمام والمبالغة، كما فى أوصى ووصي، فالتنزيل قد يستعمل فيما هو أهم وأبلغ من الإنزال... وقد تقول: وكيف يكون اللفظ الواحد لأكثر من معنى؟ فنقول: هذا كثير فى اللغة، ومن ذلك فى سبيل المثال (كفّر يكفر) فقد يكون (كفره) بمعنى نسبه إلى الكفر، أى قال: هذا كافر، وقد يكون بمعنى (جعله يكفر)

---

(١) شرح الرضى على الشافية ٩٣/١.

(٢) ملاك التأويل ١٤١/١ - ١٤٢.

ومنه قول عمر رضى الله عنه - : (ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تمنعوهم حقهم فتكفروهم) لأنهم ربما ارتدوا إذا منعوا من الحق). ومنه (ضعفه) فقد يكون بمعنى صيره ضعيفا، وبمعنى نسبه إلى الضعف[2] . ومنه (زكّى) فقد يكون بمعنى نسب الشىء إلى الزكاء،

ومنه قوله تعالى: (فلا تزكّوا انفسكم» (النجم: ٣٢) أى لا تنسبوها إلى زكاء الأعمال والطهارة عن المعاصى ولا تثنوا عليها[3] . وقد يكون بمعنى (طهر) ومنه قوله تعالى: (قد أفلح من زكاها) الشمس 9 . أى من طهرها، وعلى هذا يصح أن تقول: (زكوا أنفسكم ولا تزكوها) أى طهروا انفسكم ولا تمدحوها وتثنوا عليها بزكاء الأعمال، فإنه لا يزكى الأنفس إلا الله. ومنه (استحل الشىء) فقد يكون بمعنى عده حلالا وبمعنى سأله أن يحله) [4] . ومنه (استقام)، فقد يكون بمعنى اعتدل واستوى، وقد يكون بمعنى قوم ومنه (استقام المتاع)، أى قومه[5] . وغير ذلك.

ف- (نزّل) يمكن أن يستعمل لأكثر من معنى، فإن هذا الفعل قد يكون للتدرج والتكثير كما ذكرت، وقد يكون للمبالغة والاهتمام، فما استعمل فيه (نزل) يكون أهم وأكد مما استعمل فيه (أنزل).

---

(١) انظر لسان العرب كفر.
(2) لسان ألعرب ضعف.
(٣) البحر المحيط ٥/٨»٠-
(٤) لسان العرب (حلل).
(٥) لسان العرب (قوم).

ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: (ما نزّل الله بها من سلطان» والأعراف:71 . وقوله: (ما أنزل الله بها من سنطان) يوسف: 40 أو النجم: ٢٣ . وبالنظر فى سياق هذه الآيات يتضح الفرق. أن ما ورد فى سورة الأعراف من المجادلة والمحاورة والتحدى أشد من الموطنين الأخرين، فقد قال في سورة الأعراف: (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر
ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين فأنجيناة والذين معه برجمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) الأعراف ٧١-٧٢ . فى حين لم يكن الأمر فى قصة يوسف كذلك، وإنما هو عرض لعقيدته عليه السلام قبل أن يؤول الرؤيا للفتيين، فقد قال: (يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهاريا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) يوسف:٣٩، ٤٠، ثم أؤل لهما الرؤيا. وكذلك فى سورة النجم، فإنه لم تكن المجادلة بتلك الشدة ولا بذلك التحدى، قال: (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسئمة ضيزى إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن

يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) النجم: ١٩، ٢٣، وانتهت المجادلة. فلم يذكر ردا من جانب الكفرة فى الموطنين، بخلاف ما فى الأعراف الذى انتهى المشهد فيه بتدمير الكافرين وقطع دابرهم ونجاة المؤمنين. فهم ردوا على نبيهم بقولهم: (أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) وتحدوه بقولهم: (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين). وهو رد عليهم بقوله: (وقد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء.....) فما فى الأعراف أشد، كما هو ظاهر فجاء ب(نزّل) المضاعف لذلك. ومن ذلك قوله تعالى: (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون) الأنـعام:٣٧ . وقوله (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما
أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) العنكبوت.. 50- 51 . فقد قال فى الأنعام (لولا نزّل) وقال فى العنكبوت (لولا أنزل) والذى يظهر من السياق أن الموقف فى الأنعام أشد وأن موقف الكافرين أعنت، فقد قال تعالى: (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جآؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما
يشعرون) الأنـعام: ٢٥، ٢٦ .
(وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين..... قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه..) الأنعام:٢٩، ٣٧ . وقال فى العنكبوت: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي انزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسنمون وكذلت أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون وما كنت تتلو من فبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) العنكبوت46- 50 .
فالاختلاف بين المقامين واضح وأن موقف الشدة والمجادلة بالباطل والعنت والتكذيب فى الأنعام أظهر وأوضح فاستعمل فى الشدة وقوة المواجهة (نزّل) كما فى قوله: (ما نزّل الله بها من سلطان). جاء فى (ملاك التأويل) أنهم أتوا بالفعل (نزّل) مضعفا لما أرادوا من التأكيد[1] . وجاء فيه أيضا أن آية العنكبوت لم يتقدمها من التهديد وشديد الوعيد ما تقدم آية الأنعام فناسب ذلك ورود الفعل غير مضعف[2] . ومن ذلك قوله تعالى. (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله

فاحبط أعمالهم) محمد 9 . وقوله: (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم) محمد 26 .فقال فى الآية الأولى: (أنزل الله) وفى الثانية: (نزّل الله) . ومن السياق يظهر الفرق بين التعبيرين. قال تعالى: (والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) محمد.٨-١١ .

---

(١) ملاك التأويل ١/ 32

(٢) ملاك التأويل ١/ 322

وقال: (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) محمد 25- 29 .

وبالنظر فى الآيات يتضح أن الآيات الثانية أشد وأقوى فى الهجوم على الكفر وأهله.

١ - فإن الآيات الأولى تتكلم على الكافرين ابتداء من قوله تعالى: (و الذين كفروا فتعسا لهم) إلى قوله: (فأحبط أعمالهم) وهما آيتان وما بعد ذلك يكون الكلام على من قبلهم فى حين أن الكلام كله فى السياق الثانى على الكفرة..

٢ - أنه قال فى الآيات الأولى (أضل أعمالهم)، و (أحبط أعمالهم) وقال فى الآيات الثانية (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) و (فأحبط أعمائهم) فالتهديد فى الآيات الثانية أشد.

٣- أن صفات الكفر فى الآيات الثانية أشد، فقد قال فى الآيات الأولى (و الذين كفروا) وذكر (إنهم كرهوا ما أنزل الله) فى حين ذكر فى الآيات الثانية:

أ- أنهم ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، وهؤلاء كفرهم أشد لأنهم ارتدوا بعد علم.

ب أن الشيطان سول لهم وأملى لهم.

ج- أنهم سيطيعون الذين كرهوا ما نزل الله فى بعض الأمور.

د- أنهم اتبعوا ما أسخط ألله.

ف وكرهوا رضوائه.

و- أن فى قلوبهم مرضا.

ز- أنهم يبطنون الأضغان.

فاستعمل (نزّل) لما هو أشد وأقوى، ومنه استعمال (نجّى) و (أنجى) فإن الملاحظ أن القرآن الكريم كثيرا ما يستعمل (نجّى) للتلبث والتمهل فى التنحية ويستعمل (أنجى) للإسراع فيها، فإن (أنجى) أسرع من (نجى) فى التخلص من الشدة والكرب، هذا وإن البناء اللغوى لكل منهما يدل على ذلك كما ذكرنا. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) البقرة 49- 50 . فإنه لما كانت النجاة من البحر لم تستغرق وقتا طويلا ولا مكثا استعمل (أنجى) بخلاف البقاء مع آل فرعون فإنه استغرق وقتا طويلا ومكثا فاستمهل له (نجى).

ونحو قوله تعالى فى سيدنا إبراهيم عليه السلام: (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو

حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) العنكبوت: 24، فإنه لم يذق حرها وإنما كانت بردا وسلاما عليه فاستعمل (أنجاه) ومن ذلك قوله تعالى: (ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا) الإسراء.٦٦، ٦7).
وقوله: (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) العنكبوت.٦٥). وقوله، (هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) يونس: 22- 23 . فقال فى آيتى الإسراء والعنكبوت (نجاكم) و (نجاهم) وقال فى أية يونس (لنجاهم) وذلك أن الأمر فى يونس أشد، فإنه ذكر أن ريحا عاصفا جاءتهم وهم فى الفلك وأن الموج جاء هم من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم، وأنهم عاهدوا الله لئن أنجاهم ليكونن من الشاكرين، ولم يتعهدوا فى الحالتين الأخريين. وهذه الحالة تتطلب الإسراع في نجاتهم وعدم المكث فيما هم فيه، فقالوا: (لئن أنجيتنا من هذه)، وقال تعالى: (فلما أنجاهم). أما فى الإسراء فقد قال: (وإذا مسكم الضر فى البحر) فلم يحدد نوع الضر ولا شدته، فقد يكون خفيفا وقال: (وإذا مسكم) ولم يقل (أصابكم) والمس أخف من الإصابة، فاحتمل ذلك المكث فى البحر أكثر مما فى يونس فقال (نجاكم). وأما فى العنكبوت فلم يذكر أنه أصابهم مكروه أو مسهم ضر وإنما هى حالة خوف تعترى راكب البحر فيدعو لنفسه بالنجاة، فقال (نجاهم). فاستعمل (أنجى) للإسراع فى النجاة، واستعمل (نجّى) لما فيه مكث وتمهل، ونحوه قوله تعالى: (يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الارض جميعا ثم ينجيه) المعارج. ١١ - ١٤، أى يود لو يفتدى بكل شىء على أن لا يدخل لظى ولا يذوقها لهو لها فإنه لا يحتمل ورودها بله أن يصلاها، فاستعمل (ينجيه) مضارع (أنجى). وقد تقول: ولكن القرآن قد يستعمل فى القصة الواحدة مرة (أنجى) ومرة (نجى) كما فى قوله تعالى في سيدنا نوح عليه السلام: (كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) يونس: 33 . وقوله مرة أخرى: (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون) الشعراء: 119 . وكما فى قصة ثمود، فقد قال مرة: (ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) فصلت:٨ ١. وقال مرة أخرى: (وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) النمل: 53 . وغير ذلك فنقول. إن ذلك بحسب ما يقتضيه السياق والمقام، فقد يتطلب المقام ذكر الإسراع فى النجاة فيستعمل (أنجى) وقد لا يتطلب ذلك فيستعمل (نجى)، وكل ذلك صحيح، فقد نستطيل أمرا وقد نستقصره بحسب المقام، فقد تقول فى مقام (الدنيا طويلة) وقد تقول فى مقام آخر (الدنيا

قصيرة) ولكل مقام مقال، وإليك إيضاح الفرق بين ما ذكرت. قال تعالى فى سورة فصلت: (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) (فصلت.١٧ ، ١٨) وقال فى سورة النمل: (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنة وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لأية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون النمل 45- 53 . وواضح من السياقين أن القصة ذكرت فى النمل أكثر تفصيلا وأن الموقف فيها أشد مما فى فصلت فقد ذكر فيها:

١ - أنهم فريقان يختصمون.

٢- وأن الكفرة استعجلوا السيئة قبل الحسنة.

٣. وقالوا لنبيهم: (اطيرنا بك وبمن معك)

٤ - وأنهم تقاسموا بالله على استئصاله واستئصال أهله.

٥- وأنهم مكروا لذلك وأعدوا خطتهم.

فاستدعى ذلك الإسراع فى إنجائهم وتدمير أهل الباطل لأن الوقت لم يعد يحتمل الإرجاء، والإبطاء، فاستعمل (أنجى) لذلك، وليس المقام كذلك فى فصلت فانه لم يذكر سوى أنه هداهم ولكنهم استحبوا العمى على الهدى، ونحو ذلك قوله تعالى: (فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك) يونس: ٧٢، وقوله: (فانجيناه ومن معه فى الفلك المشحون) الشعراء: ١١٩ ، فقد قال فى يونس (فنجيناه) وقال فـى الشعراء (فأنجيناه) وإليك بيان ذلك: قال تعالى فى سورة يونس: (واتل عليهم نبا نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين فكذبوه فنجيناه ومن معة في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين يونس: 71- 73 .

وقال فى الشعراء: (كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين) الشعراء

: 105- 120، وظاهر من السياق فى القصتين أن القصة ذكرت فى الشعراء بصورة أكثر تفصيلا وأن الموقف أشد والمحاجة أطول والتهديدات أشد.

١ - فقد وصفوا المؤمنين بأنهم أراذل: (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون).

٢- وأنهم طلبوا طرد المؤمنين، فقال لهم: (وما أنا بطارد المؤمنين).

٣- وأنهم هددوه بالرجم إن لم يكف عن دعوتهم (لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين).

٤ - وأن نوحا شكا إلى ربه تكذيب قومه له: (قال رب إن قومى كذبون).

٥ - وأنه دعا بالنجاة له ولمن معه من المؤمنين: (فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين)، فاستدعى ذلك الإسراع فى إنجائهم بخلاف ما فى سورة يونس التى لم يكن فيها شىء من ذلك، وهذه القصة نظيرة ما ذكرناه فى قصة صالح، ونحوه قوله تعالى: (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) البقرة: 49 . وقوله: (وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) الأعراف 141 . فقال فى سورة البقرة (نجيناكم)، وقال فى الأعراف (أنجيناكم) ذلك أنه لم يذكر فى سورة البقرة شيئا من حالهم مع فرعون والمجتمع الذى يعيشون فيه سوى هذه الآية، أما فى سورة الأعراف فقد أطال وفصل فى حالتهم مع فرعون وقومه، ابتداء من الآية الرابعة بعد المائة إلى الآية الحادية والأربعين بعد المائة (من ١٠٤- 141) فإنه بعد أن ذكر مواجهة سيدنا موسى لفرعون ودعوته للإيمان وإظهار الآيات الدالة على صدقه ذكر شأنه مع السحرة وإيمانهم به وتهديد فرعون لهم. ثم ذكر قول الملأ لفرعون: (وقال الملا من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل ابناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) الأعراف: ١٢٧، فاستمر الأذى على ما كان عليه قبل مجىء موسى وزاد حتى قال بنو إسرائيل لموسى: (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا الأعراف: ١٢٩، وذكر أمورا تبين حالة التوتر والمعاناة التى يعيشونها فى ذلك المجتمع مما لم يذكر فى سورة البقرة، لقد ذكر فى الأعراف ما ذكره فى البقرة من الأذى وزاد عليه فاقتضى ذلك الإسراع فى إنجائهم، فقال فى البقرة (نجّى) وفى الأعراف (أنجى) وهو نظير ما ذكرناه من الآيات السابقة. ونظير ذلك ما ورد فى سورة إبراهيم وهو قوله تعالى: (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) إبراهيم:٦ ، فاستعمل (أنجاكم) لما زاد على ما فى البقرة من العذاب، فإنه قال فى البقرة: (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) البقرة 49 .

فإنه فسر سوء العذاب بقوله: (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) فى حين عطف تذبيح الأبناء على سوء العذاب فى آية إبراهيم، فجعل تذبيح الأبناء أمر أخر غير سوء العذاب[1]، فلما زاد فى العذاب اقتضى ذلك الإسراع فى الإنجاء، كما ذكرنا فى الأعراف. هذا إضافة إلى تذكيرهم بنعمة الله فى نجاتهم، والتذكير بنعمة الله فى (أنجى) أبلغ من (نجى) لما فيه من الإسراع فى النجاة وإن كان كل منهما من جليل النعم. فاتضح ما قلناه، والله أعلم.

---

(١) انظر معانى القرآن ٢ ١ ٨ ٦ ـ ٩ ٦ ، الكشاف ١٧٢/٢

المبنى للمجهول

لا نريد أن نبحث هنا المبنى للمجهول، فإنا ذكرنا كثيرا من أحواله وأمثلته فى كتابنا (معانى النحو) فلا نعيد القول فيه، وإنما عرض سؤالان فى المبنى للمجهول: أحدهما قوله تعالى فى سورة الصافات. (لا فيها غول ولا هم عنها يُنزفون) الصافات: ٤٧، ببناء الفعل (ينزفون) للمجهول، فى حين قال فى سورة الواقعة: (لا يصدعون عنها ولا يُنزفون) الواقعة: ١٩، ببنائه للمعلوم. فما السبب وهل يصح وضع أحدهما مكان الآخر؟ والآخر هو سبب بناء الفعل (طُبع) للمجهول فى قوله تعالى (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) التوبة: ٨٧ ، وببنائه للمعلوم فى قوله: (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) التوبة: ٩٣ .

أما الجواب عن السؤال الأول، فإن (ينزفون) بكسر الزاى له أكثر من معني، فإن معنى (أنزف بنزف) نفد شرابه ومعناه أيضا ذهب عقله وسكر. ومعنى (ينزف) بالبناء للمجهول ذهب عقله من السكر وهو من (نزف)، وجاء فى (لسان العرب): "أنزف القوم نفد شرابهم، الجوهرى: أنزف القوم إذا أنقطع شرابهم... والمنزوف السكران المنزوف العقل وقد نزف، وفي التنزيل العزيز: لا يصدعون عنها ولا ينزفون» أى لا يسكرون. قال الفراء: وله معنيان، يقال: (أنزف الرجل) فنى خمره، و (أنزف) إذا ذهب عقله من السكر، فهذان وجهان فى قراءة من قرأ (يُنزِفون) ومن قرا (يَنزِفون) فمعناه لا تذهب عقولهم، أى لا يسكرون"[(1)] . فمعنى الآية فى الواقعة أن هذا الشراب لا ينفد ولا ينقطع وأنهم لا يسكرون
عنه، ومعناها فى الصافات أن هذا الشراب لا يذهب عقولهم فلا يسكرون عنه. أما جواب السؤال الآخر هو: هل يصح وضع أحدهما مكان الآخر؟ فالجواب عنه أن كل مفردة إنما وضعت فى مكانها المناسب من أكثر من وجه، ذلك أن سياق الآيات فى سورة الواقعة إنما هو فى السابقين المقربين وهم أعلى الخلق من المكلفين، قال تعالى: (و السابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما) الواقعة: 10- 26 .
وسياق الآيات فى سورة الصافات إنما هو فى المؤمنين المخلصين، قال تعالى: (إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم على سرر متقابلين

يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض
مكنون) الصافات ٤٠ - 49 .

---

(١) لسان العرب (نزف) ١١/٢٣٨-٢٤٠، وانظر معانى القرآن ٢/٣٨٥.

والسابقون أعلى من هؤلاء، فإنهم أعلى الخلق من المكلفين، فإنه ليس كل مخلص من السابقين المقربين، وإن كل سابق مخلص، وذلك نرى الجزاء مختلفا.

١ - فقد قال فى الصافات: (أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون) ففسر الرزق بالفواكه. وقال فى الواقعة: (وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون)، فقد ذكر اللحم اضافة إلى الفاكهة، ثم ذكر أنهم يتخيرون الفاكهة واللحم، ولم يذكر فى الصافات انهم يتخيرون، بل قال: (أولئك لهم رزق معلوم فواكه) فما فى الواقعة أعلى. وقد تقول: ولم قال فى الصافات (فواكه) وقال فى الواقعة (فاكهة)؟ والجواب أن (الفاكهة) اسم جنس وهى أعم وأوسع من كلمة (الفواكه)، لأنه يشمل الحبة الواحدة والاثنتين والجمع ويشمل عموم الأنواع. فالتفاحة الواحدة فاكهة وليست فواكه، والتفاحتان فاكهة وليستا فواكه، والتفاح فاكهة، وأنواع الفواكه كالتين والرمان والعنب بمجموعها يقال لها فاكهة، أما الفواكه فتقال للأنواع. وإيضاح ذلك أنك تقول للتفاح وحده فاكهة وإن كثر ولا يقال له فواكه، فإن جمعت معه الرمان والتين والتمر صح أن يقال لها (فواكه) وأن يقال لها (فاكهة) أيضا، فالفاكهة تطلق على النوع الواحد وعلى الأنواع وتقال للمفرد والمثنى والجمع، أما الفواكه، فلا تطلق إلا على ما تعدد ولا تطلق على الحبة الواحدة أو الحبتين ولا على النوع الواحد، فتكون الفاكهة أعم وأشمل ويندرج تحت اسمها جميع الفواكه. ولما قال فى الواقعة (مما بتخيرون) علم أنها أنواع كثيرة وليست نوعا واحدا، ولذا يأتى القرآن بـ(ائفاكهة) فى مواطن السعة، وذلك كقوله تعالى (و الأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام) الرحمن 10- 11 . فى حين قال: (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكة كثيرة ومنها تأكلون) المؤمنون:18- 19 .

فلما ذكر الأرض على العموم، قـال: (فيها فاكهة)، ولما ذكر الجنات فى الأرض ذكر الفواكه، وذلك أنه خصص الفواكه التى فى الجنات فى حين أطلقها فى أية الرحمن.

٢ - قال فى الصافات: (وهم مكرمون فى جنات النعيم)، وقال فى الواقعة: (أولئك المقربون فى جنات النعيم)، فذكر أنهم مقربون فى جنات النعيم وهو أعلى من مجرد الإكرام، لأنه يشمل الإكرام وزيادة.

٣- قال فى الصافات: (على سرر متقاربين)، وقال فى الواقعة: (على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين)، فذكر أن السرر موضونة أى منسوجة بالذهب مشبكة بما يسر الناظر، ثم ذكر الاتكاء عليها للزيادة فى النعيم، ولم يقل مثل ذلك فى الصافات

٤- قال فى الصافات: (يطاف عليهم)، وقال فى الواقعة: (يطوف عليهم ولدان مخلدون)، فلم يذكر الطائفين فى آيات الصافات وذكرهم فى الواقعة زيادة فى التنعم.

٥- قال فى الصافات: (بكأس من معين)، وقال فى الواقعة: (بأكواب وأباريق وكأس من معين)، فزاد الأكواب والأباريق على الكأس، ولا شك أن تنوع الأوانى إنما هو لتنوع الأشربه وتعددها، فتنعم السابقين أعظم وأعلى.

٦ - قال فى الصافات: (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون)، وقال فى الواقعة: (لا يصدعون عنها ولا ينزفون)، فذكر فى الصافات أنها لا تفسدهم أو لا تهلكهم أو لا تغتال عقولهم[1] ، ولا تسكرهم، وذكر فى الواقعة أنهم لا يصيبهم منها صداع ولا يسكرون، وهذا الشراب لا ينفد، وهذا أتم وأعلى. فإنه قال فى الصافات (لا فيها غول) ومعنى الغول الفساد أو الإهلاك أو اغتيال العقل وهو السكر، فإن كان بمعنى الفساد والإهلاك فإن نفيه لا ينفى ما دونه من الآفات، فإنك إذا قلت (هذا الشراب لا يميت) فإنه لا ينفى أن يكون فيه بعض أنواع العلل دون الموت. وأما فى سورة الواقعة، فإنه نفى الأدني وهو الصداع فانتفاء الأكبر إنما هو من طريق الأولى، فإذا كانوا لا يصيبهم صداع، فمن الأولى أن لا يصيبهم منها الغول. وعلى هذا فإن انتفاء الغول لا ينفى الصداع، وانتفاء الصداع ينفى الغول، فيكون ما فى الواقعة أعلى. وإذا كان الغول بمعنى اغتيال العقول وهو السكر، فإنه نفى بقوله: (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) شيئا واحدا عنها، فإن معنى (لا ينزقون) كمعنى (لا فيها غول) ولكن إحداهما صفة الخمرة والأخرى صفة شاربها. وأما فى الواقعة فإنه نفى عنها شيئين: الصداع والسكر، وهذا أتم، ثم إنه فى الصافات نفى عنهم السكر، فقال: (ولا هم عنها ينزفون) بفتح الزاى، أى لا يسكرون عنها وأما فى الواقعة، فقد نفى السكر والنفاد، فقال: (ولا ينزفون) بكسر الزاى، أى أن هذا الشراب لا يسكر ولا ينفد، فهذا أتم وأكمل.

٧- قال فى الصافات: (وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون)، وقال فى الواقعة: (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون)، فذكر فى الصفات

---

(١) انظر روح المعانى ٨٨/٢٣، الكشاف ٦٠١/٢.

صفة واحدة من صفاتهن الجسمية وهى (عين) والعين جمع عيناء وهى الواسعة العين فى جمال. وذكر فى الواقعة صفتين وهما (حور عين) والحور البيض، وقال فى الصافات: فكأنهن

بيض مكنون)، وقال فى الواقعة: (كأمثال اللؤلؤ المكنون)، وأنت تحس الفرق بين تشبيه المرآة بالبيضة وتشبيهها باللؤلؤة المكنونة. ٨- وقال فى الواقعة: (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيل سلاما سلاما)، فنفى سماع الردىء من القول والساقط منه، وأثبت الحسن وهو: (إلا قيل سلاما سلاما)، فكأن التنعم بالنفى والإثبات، ولم يذكر مثل ذلك فى الصافات، فناسب (ينزفون) بالبناء ما فى الواقعة و (ينزفون) بالبناء للمجهول ما فى الصافات. ومما زاده حسنا قوله فى الصافات: (يطاف عليهم بكأس من معين) بالبناء للمجهول، فناسب (ينزفون) بالبناء للمجهول، وقال فى الواقعة: يطوف عليهم ولدان مخلدون بالبناء للفاعل، فناسب (ينزفون) بالبناء للفاعل. فانظر يا أخى- هداك الله- كيف ذكر فى الواقعة التقريب وهو يشمل الإكرام وزيادة، وذكر السرر وزيادة وهى أنها موضونة، وذكر التقابل وزيادة وهو الاتكاء، وذكر الطواف وزيادة، وهي الولدان المخلدون، وذكر الكأس وزيادة وهى الأكواب والأباريق، وذكر اللؤلؤ وزيادة، وذكر الحور العين، ونفى السكر، وزيادة وهى عدم النفاد، وزاد نفى اللغو والتأثيم وإثبات السلام. فيما تُرى أين تصلح كل من كلمتى (ينزَفون) و (ينزِفون) وأين تضعها أنت؟ وهل هذا كلام بشر؟ أو هو تنزيل رب العالمين؟ وأما الجواب عن السؤال الثانى، فإن إسناد الطبع إلى الله أشد تمكنا فى القلب من بنائه للمجهول، فما أسند إليه صراحة يكون أثبت وأقوى مما لم يسند إليه، وعلى هذا فهو يسند الطبع إلى الله فى مواطن المبالغة والتأكيد ويبنيه للمجهول فيها هو أقل من ذلك، وذلك واضح فى الأيتين المذكورتين وهما قوله: (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) التوبة ٨٧ . وقوله: (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) التوبة: ٩٣ ، وبالنظر فى السياقين يتضح ذلك. قال تعالى فى سياق الأية الأولى: (و إذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) التوبة: 86- 87 . وقال فى سياق الآية الثانية: (إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم تعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) التوبة 93- 96 . فأنت ترى أن الآخرين أشد ضلالا وكفرا من الأولين يدلك على ذلك ما ذكره من صفاتهم وأحوالهم، فإنه لم يذكر فى الأولين سوى أنهم يستأذنون الرسول إذا أنزلت سورة تأمر بالإيمان والجهاد وأنهم يقولون: (ذرنا نكن من القاعدين) وعقب على ذلك بقوله: (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف.....) الآية، فى حين ذكر من صفات الآخرين

ما يدل على شدة كفرهم وضلالهم وغضب الله عليهم ما لم يذكره فى الأولين.
١ - فقد طلب الله رد اعتذارهم إذا اعتذروا (قل لا تعتذروا) .
٢ - وطلب أن يخبروهم بعدم تصديقهم (لن نؤمن لكم) .
٣ - وأن يخبروهم بأن الله نبأ المؤمنين بأخبارهم وأحوالهم (قد نبأنا الله من أخباركم).
٤ - وطلب من المؤمنين أن يعرضوا عنهم (فاعرضوا عنهم).
٥ - ووصفهم بأنهم رجس (إنهم رجس) .
٦ - وذكر عاقبتهم وسوء مآلهم فى الآخرة (ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون) .
٧ - وطلب من المؤمنين ضمنا ألا يرضوا عنهم إذا ما حاولوا استرضاءهم، لأن الله غير راض عنهم (يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) .
فناسب ذلك إسناد الطبع إلى الله للدلالة على شدة تمكن الكفر فى نفوسهم وقلوبهم بخلاف الآية الأخرى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه مما حسن بناء الفعل للمجهول أيضا فى الآية الأولى ما قاله فيها: (وإذا نزلت سورة) ببناء (أنزل) للمجهول[1] ، فكما أنه لم يسند الإنزال إلى الله تعالى لم يسند الطبع إليه، فكان بناء الفعل للمجهول فى الآية الأولى أنسب وبناؤه للمعلوم فى الآية الثانية أنسب، والله أعلم.

---

(١) انظر ملاك التأويل ٤٧٠/١.

الوصف

لقد بحثنا فى كتابنا (معانى الأبنية فى العربية) وكتاب (التعبير والوصف القرآنى) جملة صالحة مما يتعلق بالوصف، وذلك كالاختلاف بين صيغ المبالغة والصفة المشبهة وصيغ اسم المفعول نحو عسر وعسير وعجيب وعجاب وكفار وكفور وغيرها فلا نعيد القول فيه. ونريد أن نبحث هنا نمطا آخر مما لم نبحثه هناك. ـ قال تعالى: (و الزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه) الأنعام: ٩٩ . فقد قال فى الآية الأولى، (مشتبها وغير متشابه) وقال فى الآية الثانية: (متشابها وغير متشابه» فما سر ذلك؟ ولم قال فى الموضعين: (وغير متشابه) فنفى التشابه دون الاشتباه؟ لقد ذكر المفسرون أن اشتبه وتشابه بمعنى واحد كاختصم وتخاصم واشترك وتشارك واستوى وتساوى ونحوها مما اشترك فيه باب الافتعال والتفاعل[1]، والذى يبدو لنا انهما ليسا بمعنى واحد وأن كل لفظة اختصت بالموطن المناسب لها. وإليك كلا من الآيتين: قال تعالى. (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منة حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) الأنعام: 99 . وقال فى الآية الأخرى: (وهو الذ ي أنشا جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكلة والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقة يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين الأنعام : 141 .

---

(١) انظر البحر المحيط ١٩١٤، الكشاف ٥٢٠/١، روح المعانى ٢٤٠١٧.

وبالنظر فى سياق كل من الآيتين يتضح الفرق بين التعبيرين. إن سياق الآية الأولى فى بيان قدرة الله وآياته الباهرة فى خلقه. قال تعالى: (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات

لقوم يؤمنون) الأنعام: 95- 99 . وأما سياق الآية الأخرى، ففى بيان الأطعمة وما يحلله ويحرمه أهل الفكر افتراء على الله وبيان عقائدهم الباطلة. قال تعالى: (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين وهو الذي أنشا جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) الأنعام 163- 141 . ويستمر السياق. فاتضح الفرق بين السياقين. وقد اتسمت الآيتان كلتاهما بسمات السياق الذى وردت فيه كل آية منهما، فالآية الأولى فى بيان قدرة الله وأياته، والأخرى فى بيان ما يؤكل، من الفواكه والزرع وإليك إيضاح ذلك:

١ ـ قال تعالى فى الآية الأولى:(وهو الذى أنزل من السماء ماء) فبدأ بمرحلة ما قبل الإنبات وبين أنه تعالى هو الذى أنزل الماء من السماء، ولم يذكر ذلك في الآية الثانية.

٢ـ ذكر فى الآية الأولى أنه أخرج به نبات كل شيء على وجه العموم ولم يخصصه بنوع معين من أنواع النبات، وهو مما يدل على القدرة الباهرة، ولم يذكر مثل ذلك فى الآية الثانية

٣ـ ذكر فى الآية الأولى أنه اخرج منه خضرا مشيرا إلى تسلسل عطية النمو والإنبات، ولم يذكر مثل ذلك فى الآية الثانية.

4- ذكر فى الأية الأولى أنه أخرج منه حبا متراكبا، ولم يشر إلى الحبوب فى الآية الثانية

٥ ـ أن المقصد الأول فى الآية الأولى بيان قدرة الله البالغة ـ كما ذكرنا ـ فقال (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) فذكر طلعها وقنوانها، فى حين كان المقصد الأول فى الآية الثانية ذكر المطعومات، فقال: (والنخل والزرع مختلفا أكله) فذكر ما يؤكل من ثمار الزرع واختلاف أنواعه وطعومه ولم يشر إلى الطلع والقنوان.

٦ ـ قال فى الآية الأولى: (أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) وهو نظير تدبر وتأمل، فى حين قال فى الآية الثانية: (كلوا من ثمره إذا أثمر) فأنت ترى أن كل تعبير مناسب لسياقه، وانظر من ناحية أخرى إلى تناسب قوله: (مختلفا أكله)، مع قوله: (كلوا من ثمره إذا أثمر).

٧ـ قال فى الآية الأولى: (إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) وهى الآيات الدالة على قدرته وبديع

صنعته، وقال فى الآية الأخرى: (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) ، فاتضح الفرق بين السياقين والآيتين. ونعود الآن إلى أصل المسألة، وهو أنه لماذا قال فى الآية الأولى: (مشتبها وغير متشابه) وقال فى الآية الثانية: (متشابها وغير متشابه) ؟
إن الفعل (اشتبه) أكثر ما يفيد الالتباس والإشكال، وإن (تشابه) أكثر ما يفيد معنى التشابه بين الشيئين أو الأشياء والمشاركة بينها فى معنى من المعانى، سواء ادى ذلك إلى الالتباس أم لم يؤد. جاء فى (القاموس المحيط): "تشابها واشتبها أشبه كل منهما الأخر حتى التبسا... وأمور مشتبهة ومشبهة كمعظمة مشكلة[1] . وجاء فى (تاج العروس) أمور مشتبهة ومشبهة، كمعظمة أى مشكلة ملتبسة يشبه بعضها بعضا[2] .

---

١) القاموس المحيط (الشبه) ٢٨٦/٤.
(٢) تاج العروس (أشبه) ٣٩٣/٩.

وجاء فى (لسان العرب): اشتبه على وتشابه الشيئان واشتبها أشبه كل واحد منهما صاحبه، وفى التنزيل: (مشتبها وغير متشابه).. وأمور مشتبهة ومشبهة مشكلة يشبه بعضها بعضا. وشبه عليه خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره.... (وأتوا به متشابها) فإن أهل اللغة قالوا معنى (متشابها) يشبه بعضه بعضا فى الجودة والحسن، وقال المفسرون: يشبه بعضه بعضا فى الصورة ويختلف فى الطعم... أبو العباس عن ابن الأعرابى... قال وسالته عن قوله تعالى: (وأتوا به متشابها) فقال: ليس من الاشتباه
المشكل إنما هو من التشابه الذى هو بمعنى الاستواء. وقال الليث: المشتبهات من الأمور المشكلات... واشتبه الأمر إذا اختلط، واشتبه على الشيء[1] . وجاء فى (المصباح المنير): "اشتبهت الأمور وتشابهت التبست فلم تتميز ولم تظهر، ومنه اشتبهت القبلة ونحوها... وتشابهت الأيات تساوت أيضا.. فالمشابهة المشاركة فى معنى من المعانى والاشتباه الالتباس[2] . فاتضح مما ذكرناه أن (اشتبه) أكثر ما يفيد الالتباس والإشكال، كقولهم (اشتبهت عليه القبلة واشتبه عليه الأمر). وأن (تشابه) أكثر ما يفيد المشاركة فى معنى من المعانى سواء أدى إلى الالتباس أم لم يؤد. ومعلوم أن الذى يستطيع أن يشبه الأمور حتى تلتبس على الناظر أو المتأمل، فلا يميز بينها أقدر من الذى يقدر على أن يجعل مجرد تشابه بين شيئين، وأن الأمور المشبهة كلما دقت كانت أدل على القدرة والبراعة.

---

(١) لسان العرب (شبه) ٣٩٨/١٧.
(٢) المصباح المنير ٣٠٤.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الأمور المشتبهة تحتاج إلى زيادة نظر وتأمل لادراك حقيقة أمرها، فوضع (مشتبها) فى السياق الدال على قدرته وأياته وفى موضع الأمر بالنظر (أنظروا إلى ثمره) دون الموضع الآخر مما ليس فى هذا السياق، فكان كل تعبير أنسب فى سياقه الذى ورد فيه. وأما الجواب عن السؤال الثانى وهو أنه: لم قال فى الموضعين (وغير متشابه) فنفى التشابه دون الاشتباه؟ فذلك لأن نفـى التشابه ينفى الاشتباه ونفـى الاشتباه لا ينفى التشابه، وإيضاح ذلك أنك إذا قلت (هذان الشيئان غير متشابهين) فقد نفيت التشابه بينهما ونفيت الاشتباه من باب أولى، وذلك لأن الاشتباه إنما يحصل من شدة التشابه بين الشيئين، فإذا نفيت التشابه زال الالتباس والاشتباه.

أما إذا (هذان الشيئان غير مشتبهين) فقد نفيت الاشتباه وعدم التمييز بينهما، ولكنك لم تنف التشابه، فقد يكون بينهما تشابه لا يوقع فى اللبس، فلو قال فى الآية الأولى (مشتبها وغير مشتبه) لكان نفى عنه الاشتباه ولم ينف عنه التشابه، فعلى هذا يمكن أن يكون النوعان متشابهين فى وجه من الوجوه، فأراد أن ينفى ذلك، فقال: (و غير متشابه) وهذا أدل على القدرة فإن جعل الأشياء بعضها متشابه وبعضها مختلف أدل على القدرة من جعلها كلها متشابهة أو جعلها كلها مختلفة، والله أعلم. "- قال تعالى: (كأنهم أعجاز نخل خاوية) الحاقة 7 . وقال: (كانهم أعجاز نخل منقعر) القمر: ٢٠، فذكر صفة النخل فى آية القمر، فقال: (نخل منقعر» وأنثها فى الحاقة، فقال: (نخل خاوية)، فما سبب ذلك وهل يصح وضع . احداهما مكان الأخرى؟ لقد ذكر علماء العربية والمفسرون أن النخل اسم جنس يذكر نظرا للفظ ويؤنث نظرا للمعنى، وإنما وضع كل صفة بمكانها مراعاة للفاصلة[1] ،

---

(١) انظر البحر المحيط ١٧٩/٨، روح المعانى ٨٧/٢، الكشاف ١٨٤/٣.

والذى أراه أن ذلك مراعى فيه المعنى أيضا وليس للفاصلة وحدها، وإن كانت الفاصلة تقتضى أن تكون كل لفظة بمكانها، إن العرب قد تؤنث للكثرة وتذكر للقلة، وذلك كما فى قوله تعالى: (وقال نسوة فى المدينة) و (قالت الأعراب آمنا) فذكر (قال) لأن النسوة قلة و أنث (قالت) لأن الأعراب كثرة[1]، وقد تؤنث للمبالغة نحو: راوية وداهية[2] . والنخل فى آية الحاقة أكثر منه فى أية القمر يدل على ذلك السياق، قال تعالى فى الحاقة: (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية) الحاقة:٦- ٨. وقال فى سورة القمر، (كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز

نخل منقعر) القمر: ١٨ - ٢٠، ويتضح من سياق الآيات ما يأتى.

1- أنه قال فى القمر: (أنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا)، وقال فى الحاقة: (بريح صرصر عاتية)، فزاد فى وصف الريح فى الحاقة فقال: (عاتية) فهى أشد مما فى القمر، وإذا كانت كذلك كان تدميرها أكبر وأبلغ واقتلاعها أكثر.

٢ - قال فى القمر: (فى يوم نحس مستمر)، وقال فى الحاقة: (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما) فذكر فى القمر أنه أرسلها عليهم فى يوم، وذكر فى الحاقة أنه سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام، فزاد فى وقت التدمير والعذاب، ولا شك أن طول المدة يقتضى تدميرا أكثر وأبلغ، فالريح تقتلع وتدمر فى سبع ليال وثمانية أيام أكثر مما تفعله فى يوم، فزاد فى النخل المقتلع فى الحاقة.

---

(١) انظر معانى القرآن ١/ 435

٢) انظر شرح التصريح ٢٨٨/٢، شرح ابن يعيش ٩٨/٥، الهوامع ١٧٠/٢.

٣- ولما زأدت الريح عتوا وأمدا فى الحاقة ذكر أنها استأصلتهم كلهم فلم تبق منهم أحدا، فقال: (فهل ترى لهم من باقية)، ولم يقل مثل ذلك فى القمر.

٤- أن النخل المنقعر معناه المنخلع عن مغارسة الساقط على الأرض[1]، ومعنى (خاوية) خربة [2]، وقيل: خلت أعجازها بلى وفسادا [3] ومثل: "الخاوية معناها معنى المنقلع وقيل لها إذا انقلعت خاوية، لأنها خوت من منبتها التى كانت تنبت فيه وخوى منبتها منه[4] فالنخل الخاوية تشمل النخل المنقعر وزيادة فكل نخل منقعر هو خاو، وليس كل خاو منقعرا، فأنث الخاوية، لأنه أكثر من المنقعر وإن دماره أبلغ، وجعلها فى سياق الدمار الشامل، ومن هذا يتبين.

١ - أن الخاوى أكثر من المنقعر.

٢- أنث الخاوى، فقال (خاوية) فزاد كثرة ومبالغة، لأن التأنيث قد يأتى للكثرة والمبالغة.

٣- وضع النخل الكثير المدمر مع الريح المتصفة بزيادة التدمير وهى صفة العتو (ريح صرصر عاتية).

٤ - ووضعه أيضا مع زيادة وقت التدمير وهو سبع ليال وثمانية أيام بخلاف ما دمر فى يوم.

٥- ووضعه مع استئصال القوم، فلم ينج منهم أحد.

فأنت ترى أنه لو لم تكن الفاصلة تقتضى ما وضع لاقتضاه المعنى، فزاد . حسنا على حسن، فلا يصح وضع إحداهما مكان الأخرى، والله أعلم.

---

(1) أنظر روح المعانى ٢٧/ ٨٧، البحر المحيط ٨/ ١٧٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٤١٢/٤، فتح القدير ٢٧٤/٥.

(٣) البحر المحيط ٣٢١/٨.

(٤) لسان العرب (خوى) ٢٦٩/١٨.

الإفراد والتثنية والجمع

قد يستعمل القرآن الكريم المفرد فى موطن ويستعمل المثنى فى موطن آخر يبدو شبيها بالأول، وقد يستعمل جمعا فى موطن ويستعمل جمعا آخر للمفردة نفسها فى موطن أخر، وقد يستعمل المفرد فى موطن هو من مواطن الجمع، وما إلى ذلك من المواطن التى تستدعى التأمل والنظر.

١ - فمن قوله تعالى. (فأتيا فرعون فقولا (إنا رسول رب العالمين) الشعراء: ١٦. وقوله: (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل) طه 47 . وقوله: (ولقد ارسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين)الزخرف:٤٦ . فقال فى أية الشعراء: (إنا رسول رب العالمين) بالإخبار بالمفرد عن المثنى. وقال فى أية طه: (إنا رسولا ربك) بالإخبار بالمثنى عن المثني، وقال فى الزخرف: وٰإني رسول رب العالمين) بالإخبار بالمفرد عن المفرد، وبالرجوع إلى سياق الآيات يتضح سبب الاختلاف. ففى سورة الشعراء ورد ذكر لهرون مع موسي، غير أن القصة مبنية على الوحدة، لا على التثنية، فقد قال على لسان موسى (قال رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل) الشعراء. ١٢ -١٧ . ثم ينتقل إلى الوحدة. (قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين) الشعراء: ١٨. ويستمر النقاش مع موسى وحده: (قال فرعون وما رب العالمين) الشعراء: ٢٣، (قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) الشعراء: ٢٤ ، (قال ربكم ورب آبائكم الأولين الشعراء:٢٦ ٠ (قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) (الشعراء:٢٧)، (قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) الشعراء.٢٨ .

ثم يوجه فرعون الكلام إلى موسى مهددا له: (قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين الشعراء: ٢٩ ، قال له موسى: (قال أولو جئتك بشيء مبين) الشعراء: 30 .

ق-ال: (قال فأت به إن كنت من الصادقين) الشعراء:٣١ . (قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) الشعراء 34، 35 . فى حين بنى الكلام فى سورة طه لى التثنية: (اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري اذهبا إلى فرعون إنه طغى) طه: 42، 43 . ويستمر الكلام على التثنية، وإليك الفرق بين السياقين:

فى الشعراء: فى طه: (قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) (ولهم علي ذنب

فأخاف أن يقتلون) (قد جئناك بآية من ربك) (أولو جئتك بشيء مبين) (قالوا إن هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) قال للملإ حولة إن هذا لساحرعليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) فلما بنى الكلام فى طه على التثنية قـال: (إنا رسولا ربك) بتثنية الرسول، ولما بنى الكلام فى الشعراء على الوحدة مع إشارات إلى هارون قال: (إنا رسول رب العالمين) بإفراد الرسالة وتثنية الضمير. ولما لم تكن آية إشارة إلى هارون فى الزخرف قاله بإفراد الضمير والرسول: (إنى رسول رب العالمين)، فجعل كل تعبير فى موطنه الذى هو أليق به.

٢- ومن ذلك استعمال (طفل) و (أطفال) فهو يستعمل الطفل والأطفال للجمع، قال تعالى: (ثم نخرجكم طفلا) الحج: ٥ . وقال (ثم يخرجكم طفلا) غافر: ٦٧ ، وقال: (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) النور: ٣١ . فى حين قال: (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا) النور 59 . فاستعمل الطفل والأطفال للجمع، فما سبب ذلك؟ ولماذا خص كل موطن بما استعمل فيه؟

إن العرب قد تستعمل كلمة (طفل) للمذكر والمؤنث المفرد والمثنى والجمع، فتقول: جارية طفل، وجاريتان طفل، وجوار طفل، وغلام طفل، وغلمان طفل، كما تستعملها على القياس، فتقول: طفل وطفلة وطفلان وطفلتان وأطفال وطفلات[1] ، فاستعمل (الطفل) للجمع معروف عند العرب وبه جرت ألسنتهم، أما سبب تخصيص كل موطن بالاستعمال الذى ورد فيه فهذا يظهر من السياق. قال تعالى فى سورة الحج: (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر)الحج ٥ . وقال فى سورة غافر: (هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشذكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون) غافر 67 .

---

١) انظر لسان العرب طفل) ٤٢٥/١٣.

وقال فى سورة النور: (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات) النور:٥٨ . (و إذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم) النور: 59 . فقال فى أية الحج: (ثم نخرجكم طفلا) وقال فى آية غافر: (ثم يخرجكم طفلا) فى حين قال فى آية النور: (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم) ذلك أن آيتى الحج وغافر تتكلمان على خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم علقة، فبنى الكلام على خلق الجنس وليس

على خلف الإفراد، فلم يقل خلقناكم من نطف ثم من علقات، أو ثم من مضغات، بل بناه على المفرد الذى يفيد الجنس، والنطفة والعلقة والمضغة نخرج طفلا لا أطفالا، فناسب ذلك التعبير بالجنس، فقال: (ثم نخرجكم طفلا) فى أية الحج،
و(ثم يخرجكم طفلا) فى آية غافر فكلتاهما متشابهة، ومما زاد ذلك حسنا أن كلمة (طفل) تستعمل فى كلام العرب للمفرد والجمع، فكانت أنسب من كل ناحية. وأما آية النور فمبنية على الجمع لا على الإفراد ولا على الجنس وهى مبنية لعلاقات الإفراد فى المجتمع فقال: (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم) .
والذين لم يبلغوا الحلم هم الأطفال وليس طفلا واحدا، ولذلك قال: (و إذا بلغ الأطفال منكم الحلم) بصيغة الجمع فناسب ذلك ما قبله ولا يناسبه الإفراد، لأن الكلام على الجمع.
هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن آية النور فى الكلام على العلاقات الاجتماعية وهذا يتطلب مجتمعا لا فردا فناسب الجمع أيضا. وقد تقول: إنك ذكرت أن كلمة (طفل) قد تكون للجمع، فلماذا كانت كلمة (أطفال) أنسب ههنا؟ والجواب أن كلمة (طفل) قد تكون للمفرد وهى فى المفرد أشهر منها فى الجمع، فى حين أن سياق آية النور ليس فيه احتمال إفراد، فناسب التعبير موطنه من كل ناحية. وأما قوله تعالى: (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل
الذين لم يظهروا على عورات النساء) النور: 31 . ونود هنا أن نسجل الملاحظات الأتية:
١ - أن كلمة (الطفل) اسم جنس، فهو يشمل كل الأطفال، تقول (الطفل لا يعى) وتقصد به عموم الأطفال، وبهذا المعنى يكون أشمل من الجمع فإنك إذا قلت (لا أطفال فى الدار) لا تنفى أن يكون فيها طفل أو طفلان، فإن قلت (لا طفل فى الدار) نفيت عموم الجنس، الواحد والاثنين والجمع.
2 - أن كلمة (طفل) قد تصف بها العرب الواحد والمثنى والجمع المذكر والمؤنث كما ذكرنا، فبهذا المعنى تشمل الواحد والاثنين والجمع المذكر والمؤنث.
٣- أن كلمة (طفل) فى الآية أشمل وأعم من جميع المذكورين، ذلك أن البعل مختص بالمرأة فهو يخص واحدا بعينه والآباء كذلك، وكذلك أبو البعل وأبناء البعل وأبناء المرأة وكذلك الباقى، فإنه إما مختص بأقرباء المرأة أو ملك يمينها. أما الطفل فهو عام غير مختص بقرابة، بل يشمل جميع الأطفال فناسب استعمال الجنس لأنه يراد به العموم.
٤ - أن المذكورين فى الآية أشخاص متعددو الإحساس والمواقف بالنسبة إلى الجنس والزينة، فكل واحد له إحساس خاص به، وأما الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء فموقفهم

واحد متجانس وهو عدم التمييز، فكأنهم شخص واحد لا تمايز بينهم فأفردهم وجعلهم كأنهم شخص واحد. فكأن الإفراد ههنا أنسب، والله أعلم.

٥- ومن ذلك استعمال (بنى) و (أبناء) فهو يستعمل مرة (بنى)، ومرة (أبناء)، وذلك نحو قوله تعالى فى سورة النور: (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبـائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) النور. ٣١ .

وقوله فى سورة الأحزاب: (لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنالهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا) الأحزاب.٥٥ .

وهنا سؤالان، الأول: لم قال فى أية النور: (ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن) وقال: (أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن) فاستعمل مرة (بنى) ومرة أبناء؟

والسؤال الثانى: لم قال فى آية الأحزاب: (ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولم يقل: (ولا بنى إخوانهن ولا بنى أخواتهن) كما قال فى النور؟ والجواب عن السؤال الأول ان لفظة (بنى) تدل على الكثرة وأنها تشمل اكثر مما يشمله الأبناء نحو بنى آدم وبنى إسرائيل، ولذلك يستعمل القرآن (بنى آدم) لمجموع البشر، و (بنى إسرائيل) لهؤلاء القوم على مر العصور، ولم يستعمل أبناء أدم ولا أبناء إسرائيل.

وبنو الإخوان وبنو الأخوات هم أكثر المذكورين فى الآية، فإن الإخوان قد يكونون إخوانا أشقاء، وقد يكونون إخوانا من الأم، وقد يكونون إخوانا من الأب، وحكم هؤلاء جميعا واحد فيما ذكر.

كذلك الأخوات فانهن قد يكن أخوات شقائق وقد يكن أخوات لأم وأخوات الأب وحكم أبناء هؤلاء جميعا واحد أيضا. وهؤلاء أكثر من أبناء المرأة وحدها وأكثر من أبناء البعولة وحدهم، فاستعمل (أبناء) لما هو أقل، و (بني) لما هو أكثر، جاء فى (روح المعانى): "والمراد بالإخوان ما يشمل الأعيان وهم الأخوة لأب واحد وأم واحدة، وبنى العلات، وهم أبناء الرجل من سنوة شتى، والأخياف، وهم أولاد المرأة من أباء شتى، ونظير ذلك فى الأخوات، واستعمل (بنى) معهم دون (أبناء) لأنه أوفق بالعموم وأكثر استعمالا فى الجماعة ينتمون إلى شخص مع عدم اتحاد صنف قرابتهم فيما بينهم، ألا ترى أنك كثيرا ما تسمع بنى آدم وبنى تميم، وقلما تسمع أبناء آدم وأبناء تميم. وفيما نحن فيه يجتمع للمرأة ابن أخ وشقيق وابن أخ لأب وابن أخ لأم، بل قد يجتمع لها أبناء أخ شقيق أو أخوة أشقاء أعيان وبنو علات وأبناء أخ أو أخوة لأب وأبناء أخ أو أخوة لأم كذلك.

ويتأتى مثل ذلك فى ابن الأخت، لكن لا يتصور هنا بنو العلات، كما لا يتصور فى أبناء[1] الأخ الأخياف والاجتماع فى أبنائهن وأبناء بعولتهن إن اتفق، لكنه ليس بتلك المثابة".

أما الجواب عن السؤال الثانى، وهو أنه لم قال فى آية الأحزاب: (ولا أبناء أخوانهن ولا أبناء أخواتهن) ولم يقل: (بنى أخوانهن) أو (بنى أخواتهن)، كما قال

---

(١) روح المعانى ١٤٢/٨ـ ١٤٣.

فى آية النور، فذلك لأن آية الأحزاب فى نساء النبى، فأبناء إخوانهن وأبناء أخواتهن أقل مما فى أية النور، فاستعمل لذلك (أبناء)، والله أعلم.

٤ ـ ومن ذلك استعمال النخل والنخيل، فقد يستعمل القرآن أحيانا (النخل) ويستعمل أحيانا (النخيل) وذلك نحو قوله تعالى: (ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب) الأنعام: ٩٩ . وقوله (و النخل باسقات لها طلع نضيد) ق . في حين قال: (ينبت لكم به الزرع والزيتون

والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) النحل: ١١. وقال: (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) النحل: ٦٧ فما الفرق بينهما؟ لقد ذهب السهيلى إلى أن كلمة (النخيل) تفيد الكثرة، وذلك لأنها تتناول الصغير والكبير، أما النخل فهو خاص بالمثمر، وعلى هذا يكون النخل أقل عددا من النخيل.

جاء فى (البرهان): "قال السهيلى فى (الروض الأنف): إذا قلت: عبيد ونخيل اسم يتناول الصغير والكبير من ذللك الجنس، قال تعالى: (وزرع ونخيل)، وقال: (وما ربك بظلام للعبيد* وحين ذكر المخاطبين منهم، قال (العباد)، ولذلك قال حين ذكر المثمر[1] من النخيل: (والنخل باسقات)، و (أعجاز نخل منقعر) فتأمل الفرق بين الجمعين فى حكم البلاغة واختيار الكلام[2] .
والذى أراه العكس فإن النخل أكثر من النخيل، وذلك ان النخل اسم جنس جمعى والنخيل جمع، واسم الجنس أشمل وأعم من الجمع، كما قرره علماء اللغة،

---

(١) فى البرهان: الثمر، وما أثبتاه أشبه بالصواب.
(٢) البرهان ٢١/٤.

وكما هو فى الاستعمال القرآني، ذلك أن اسم الجنس يشمل المفرد والمثنى والجمع ويقع على القليل والكثير، فيصح أن يقول من أكل تمرة واحدة: (لقد أكلت التمر)، ولا يصح أن يقول: (أكلت تمرتين ولا تمرات ولا تمورا) ويصح أن يقول من شاهد نخلة واحدة أو نخلتين: (لقد شاهدت النخل)، ولا يقول: (شاهدت النخيل ولا النخلات). جاء فى (شرح الرضى على الشافية): "اعلم أن الاسم الذى يقع على القليل والكثير بلفظ المفرد فإذا قصد التنصيص على المفرد جىء فيه بالتاء يسمى باسم الجنس وأما المعنى فلوقوع المجرد من التاء منه على الواحد والمثنى أيضا، إذ يجوز لك أن تقول: أكلت عنبا أو تفاحا مع أنك لم تأكل إلا وأحدة أو اثنتين، بل قد يجىء شىء منه لا يطلق إلا على الجمع، وذلك من حيث الاستعمال لا من حيث الوضع كالكلم والأكم وهو قليل، فتقول: مثل هذا الاسم إذا قصدت إلى جمع قلته جمعته بالألف والتاء، وإذا قصدت الكثرة جردته من التاء، فيكون المجرد بمعنى الجسم الكثير نحو: نملة ونمل ونملات[1] .
وجاء فى (شرح الرضى على الكفاية): "ويخرج أيضا يعنى عن الجمع اسم الجنس، أى الذى يكون الفرق بينه وبين مفرده بالتاء، نحو: تمرة وتمر، أو بالياء نحو رومى وروم، وذلك لأنها لا تدل على آحاد اللفظ إذ اللفظ لم يوضع للآحاد، بل وضع لما فيه الماهية المعينة، سواء كان واحدا أو مثنى أو جمعا. إن اسم الجنس يقع على القليل والكثير فيقع (على)[2] التمرة والتمرتين والتمرات وكذا الروم، فإن أكلت تمرة أو تمرتين وعاملت روميا أو روميين جاز لك

(١) شرح الرضى على الشافية ١٩٣/ 2 -١٩٦.
(٢) زيادة يقتضيها السياق.

أن تقول: أكلت التمر وعاملت الروم، ولو كانا جمعين لم يجز ذلك كما لا يقع رجال على رجل ولا رجلين[1] .
وأما ما ذكره السهيلى فى (الروض الأنف) ففيه نظر من حيث اللغة ومن حيث الاستعمال القرآنى، فإن الله كما قال: (وما ربك بظلام للعبيد) قال: (وما الله يريد ظلما للعباد) وكما قال: (والنخل باسقات لها طلع نضيد فذكر المثمر فإنه قال: (ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) وهو مثمر أيضا، وقال: (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) فالنخيل يقال له للمثمر وغيره وكذلك النخل. أما الفرق بينهما فما ذكرناه وهو أن النخل أعم وأشمل من النخيل لأنه اسم
جنس جمعى، وهذا ما قرره علماء اللغة ويؤيده الاستعمال القرآنى، يدل على ذلك أن الفرآن أورد (النخيل) فى ثمانية مواضع وهى فيها لا تفيد الشمول. فقد قال: (أيود أخدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابة الكبر وله ذرية ضعفاء) البقرة. 266 . وقال: (أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا) إالإسراء: 19 .
وقال (فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكة كثيرة ومنها تأكلون) المؤمنون: 19 . وقال: (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون) يس: 34 . فأنت ترى فى هذه الآيات الأربع أنه جعل النخيل فى جنات فلا يشمل ما فى غير الجنات فلا تدخل فيها النخلة الواحدة أو النخلتان وقليل النخل.

(١) شرح الرضى على الشافية ١٨٧/٢.

وقال. (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل) الرعد: ٤. فقال: (يسقى بماء واحد)، فخرج ما لم يسق بماء واحد. قال: (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منة سكرا ورزقا حسنا) النحل: ٦٧، فخرج منه ما لم يتخذ منه السكر. أما النخل فهو عام يشمل الصغير والكبير المثمر وغيره، سواء كان فى جنات أم فى غيرها وسواء كانت نخلة واحدة أو أكثر. قال تعالى فى وصف الجنة: (فيهما فاكهة ونخل ورمان) الرحمن 68 . ونخل الجنة كثير كثير.

وقال: (أتتركون في ما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم) الشعراء: 146- 148 . والنخل ههنا يشمل ما فى الجنات وغيرها.
وقال: (و الارض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام) الرحمن: 10- 11 . وهو يشمل جميع النخل سواء كان فى جنات أم لم يكن. وقال: (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) القمر 20 . وقال: (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) الحاقة: 7 .
وقال: (ولاصلبنكم في جذوع النخل) طه: 71 . وقال: (والنخل باسقات لها طلع نضيد) ق 10 .
فأنت ترى أنه لم يخصص النخل بشىء، فهو أعم من النخيل وأشمل، وقد تقول: ولكن القرآن قد يستعملها استعمالا واحدا، وذلك نحو قوله تعالى فى سورة النحل(هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه9 شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) النحل. ١٠، ١١ . وقوله فى سورة عبس: (فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا) عبس.٢٤ -٣١ . فاستعمل النخل والنخيل لما يخرج من الأرض على وجه العموم ولم يخصص النخيل بشىء. والحق أن السياق مختلف وأن (النخل) فى عبس أكثر من (النخيل) فى النحل النك ما يوضح ذلك:
١ - أنه قال فى النحل: (هو الذى أنزل من السماء ماء)، وقال فى عبس: (أنا صببنا الماء صبا)، والصب أكثر من الإنزال علاوة على أنه أكده بقوله: (صبا) .
٢- جعل الماء فى النحل للشراب والشجر، فقال: (لكم منه شراب ومنه شجر) فى حين خصص الماء فى عبس للطعام ولم يذكر الشراب، فالماء المعد للزراعة فى عبس أكثر فإنه لم يخصص قسما منه للشرب، بل جعله للطعام خاصة.
٣- ثم إن المنتوجات فى عبس أكثر، فقد ذكر فى النخل: الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، وذكر فى عبس الحب والعنب والقضب والزيتون والنخل والحدائق الغلب، وهى الملتفة الكثيرة الشجر والفاكهة والأب، فلما زاد فى الماء المخصص للزرع فى عبس زادت المنتوجات فى النوع والكمية.
٤ - ذكر النخيل والأعناب بصورة الجمع فى النحل، وذكر النخل والعنب بصورة اسم الجنس الجمعى فى عبس وهو أكثر.
-- قال فى النحل: (هو الذى أنزل من السماء ماء.... ينبت لكم به الزرع) بإسناد الفعل إلى ضمير الغيبة، وقال فى عبس: (أنا صببنا الماء صبا، ثم شققنا الأرض فأنبتنا) بإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع للتعظيم، وهذا يقتضى الزيادة فى التفضل على الإنسان فيما ذكر.
٦- ثم انظر كيف انه لما زاد فى الكمية والأنواع فى (عبس) جاء بضمير الجمع، فقال: (أنا. صببنا. شققنا. فأنبتنا)، وجاء بضمير الإفراد فى (النحل)، ونحو ذلك قوله تعالى: (ونزلنا من

السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) ق:9- 11 . فاستعمل (النخل) فى آية ق ولم يستعمل (النخيل) كما فى النحل. ويتضح سبب ذلك من النظر فى الآيتين.

١ - فقد أسند إنزال الماء فى (ق) إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع للتعظيم (ونزلنا) فى حين أسنده إلى ضمير الغائب كما أسلفنا، والإسناد إلى المتكلم يقتضى زيادة التفضل والإحسان.

٢ - قال في النحل (أنزل) وقال فى ق (نزلنا) بالتضعيف للدلالة على الكثير فالماء فى ق أكثر.

٣ - قال فى النحل: (هو الذى أنزل من السماء ماء)، وقال فى(ق): (ونزلنا من السماء ماء مباركا)، فوصف الماء في ق بأنه مبارك ولم يصفه بذلك فى النحل، والمبارك هو الكثير الزائد فإن البركة هى النماء والزيادة[1]، فما فى النحل يصدق على الإنزال القليل والكثير بخلاف فى ق.

٤ - جعل الماء فى النحل للشراب والشجر والزرع فى حين خصه فى ق بالإنبات، فجعل الماء الكثير للزرع خاصة، وهذا يقتضى زيادة المنتوجات الزراعية فى (ق) على ما فى النحل ومن هذه المنتوجات النخل، وهذا نظير ما ذكرناه فى النحل وعبس.

---

(١) انظر لسان العرب (برك) ٧٥/١٢، القاموس المحيط (البركة) ٢٩٣/٣.

٥ـ لقد قسم الماء فى النحل على ثلاثة أشياء: الشراب وما يأكله الإنسان وما يأكله الحيوان، فقال: (لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون)، أى ترعون ماشيتكم، وقال: (ينبت لكم به الزرع) وهو عام يأكله الإنسان والحيوان، فى حين جعل الماء الكثير فى ق لما يأكله الإنسان، فقال: (رزقا للعباد). وهذا يقتضى زيادة المنتوجات من هذا النوع من الزرع، فكان ما فى (ق) أكثر، فلما ضاعف فى التنزيل وأسنده إلى نفسه وبارك فى الماء وخصه بإنبات ما يأكله الإنسان زاد فى الانتاج في ق فقال: (والنخل باسقات) بصيغة اسم الجنس الجمعى.

ولما يقل مثل ذلك فى النحل، قال: (و النخيل والأعناب) فذكر النخل فى مواطن التكثير. فدل ذلك على أن النخل أعم وأشمل من النخيل، ثم أنظر كيف أنه لما كان المقام فى سورة (ق) مقام ذكر الزينة والجمال، فقال: (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) ق:٦، ٧ . فذكر زينة السماء وبهجة الزرع في الأرض ذكره جمال النخل، فقال: (والنخل باسقات وهو صورة جميلة من صورة النخل، ثم وصف ثمرها بقوله: (لها طلع نضيد) وهى صورة جمالية أخرى فناسب بين الصورة والمقام. ولا نريد أن نطيل فى هذا الأمر، وإلا فالكلام فيه يطول.

الحركة غير الإعرابية

وردت فى القراءة المشهورة كلمات محركة بغير الحركة المألوفة المشهورة وذلك نحو قوله تعالى: (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) الفتح:١٠ ، وقوله: (وما انسانيه إلا الشيطان أن أذكره) الكهف. ٦٣ ، بضم الهاء من (عليه) و (أنسانيه) مع أن المشهور فى نحو هذا كسر الهاء، قال تعالى: (وما أسألكم عليه من أجر) الشعراء: ١٠٩ ، وقال: (وقالت لأخته قصيه) القصص:١١ . ويحسن ان نشير هنا إلى أن ضم الهاء فى نحو هذا لغة الحجاز، وأما غيرهم فيكسرها، جاء فى (شرح الرضى على الكفاية): "وحركة هاء المذكر ضمة إلا أن قبلها ياء أو كسرة، فإن كان قبلها أحدهما فأهل الحجاز يبقون ضمتها ويقولون (بهو) و (لديهو) وغيرهم يكسرونها[1] . والقرأن نزل فى هذا بلغة سائر العرب.

وهنا يعرض سؤال، وهو لماذا ورد فى هذين الموطنين الضم دون الكسر؟ وينبغى لنا قبل أن نجيب عن السؤال أن نشير إلى حقيقة لغوية معلومة اتفق عليها علماء اللغة قديما وحديثا، وهى أن الضمة أقوى الحركات وأثقلها ثم تليها الكسرة ثم تليها الفتحة وهى أخف الحركات[2] . وقد يسبق إلى الوهم أن الكسرة أثقل من الضمة لما سمعوه وتعلموه من قواعد كتابة الهمزة أن الكسرة أقوى الحركات بالنسبة إلى رسم الهمزة ثم الضمة ثم الفتحة.

---

(١) شرح الرضى على الكافية ١١/٢، وانظر الهمع ٥٨/١-٥٩ه.

(٢) انظر التصريح 1/ 59 .

فنقول: إن هذا أمر إملائى لا علاقة له بالنطق ولا علاقة له بالحقيقة اللغوية الثابتة. إن النطق بالضمة يحتاج إلى جهد عضلى أكثر من الكسرة والفتحة، وذلك لأنها لا تنطق إلا بانضمام الشفتين وارتفاعهما ولا تحتاج الكسرة ولا الفتحة إلى ذلك[1] كما هو ظاهر ومعلوم. وهذه الحقيقة تفسر كثيرا من الظواهر اللغوية فى الأبنية والتأليف[2] .ونعود إلى مسألتنا لنرى سر التعبير فى نحو ما مر.

1- قال تعالى: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) الفتح: ١٠، فقال: (عليه) فجاء بالضمة التى هى أثقل الحركات للدلالة على ثقل هذا العهد وعظمه، وذلك من جملة أنواع منها:

أ- أنه قال: (ان الذين يبايعونك) وهذه البيعة كانت يوم الحديبية وكانت بيعة على الموت فى

نصرة الرسول[3] ونصرة دينه، والبيعة على الموت أشد وأثقل أنواع البيعات وأقواها
ب - وقال: (إنما يبايعون الله وهذا تعظيم لهذه البيعة التى يكون فيها الله هو الطرف المبايع.
ج- وقال: (يد الله فوق أيديهم) وهذا توكيد لما قبله وتوثيق لأمر هذه البيعة العظيمة .

---

(1) انظر التصريح ٥٨/١.
(٢) انظر فى سبيل المثال: المحتسب لابن جنى 2/18-19 ، معانى الأبنية فى العربية ١٠٠-١٠٢.
(٣) انظر روح المعانى ٩٧/٢٦.

د- حذر من نكث هذه البيعة ونقض هذا العهد، وقال: إن ضررنكثه يعود على الناكث نفسه.
هـ وذكر أن من أوفى بهذا العهد سيؤتيه الله أجرا عظيما، فهو كما ترى عهد عظيم ثقيل، فناسب أن يأتى بأثقل الحركات وهى الضمة مجانسة لثقل هذا العهد. ثم إن الضمة ينطق معها لفظ الجلالة بتفخيم اللام بخلاف الكسرة، فإنها ينطق معها لفظ الجلالة بترقيق اللام، فجاء بالضم ليتفخم النطق بلفظ الجلالة إشارة إلى تفخيم العهد فناسب بين تفخيم الصوت وتفخيم العهد، وهو تناظر جميل. جاء فى (روح المعانى) فى هذه الآية: "وقرأ الجمهور (عليه) بكسر الهاء هو شائع وضمها حفص... وحسن الضم فى الآية التوصل به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام، وأيضا إبقاء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد وإبقائه وعدم نقضه[1] .
٢. قال تعالى: (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) الكهف ٦٣ ، بضم هاء (أنسانيه)، والمشهور فى نحو هذا الكسر، كما ذكرنا. وهذا فى الحوت الذى تزوده سيدنا موسى وفتاه وهما يبحثان عن الرجل الصالح. فقد أمر الله موسى أن يتزود حوتا مالحا، فحيث يفقده فهناك يجد الرجل، وهذا الحوت على ما جاء فى صحيح مسلم حوت مملح [2].وقيل: هو حوت مشوى، وفى رواية أنه كان يصيبان منه حاجتهما إلى الطعام[3] .

---

(١) روح المعانى 26/ 97 .
(٢) صحيح مسلم ١٠٥/٧.
(٣) انظر روح المعانى ٣١٤/٢٥، فتح القدير ٣/ ٢٨٧.

والظاهر من سياق الآيات أنه كان مشويا بدليل قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطبا فتاه: (آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) الكهف:٦٣ . فهذا يدل على أن الحوت

كان جاهزا لأن يؤكل. غير ان هذا الحوت المملح المشوى المأكول منه سرت فيه الحياة واتخذ سبيله فى البحر والفتى ينظر إليه، وكان عند جريه ينعقد فوقه الماء فيكون كالنفق والحوت يجرى فى داخله، وإليك قول الله فيه: (وإذ قال موسى لفتاة لا أبرح ختى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا فلما جاوزا قال لفتاة آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا) الكهف.٦٠- 63 .

جاء فى (روح المعانى) فى قوله: (فاتخذ سبيله فى البحر سربا) أى: "مسلكا كالسرب وهو النفق، فقد صح من حديث الشيخين والترمذى والنسائى وغيرهم أن الله تعالى أمسك عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، والمراد ده البناء المقوس كالقنطرة[1] وهذا المشهد من أعجب العجب، وفيه أمران كل منهما يدعو إلى عجب أكبر من صاحبه.

الأمر الأول: أن يحيا حوت مشوى مأكول منه. والثاني: أن يجرى فى البحر فينعقد فوقه الماء كأنه الطاق، حيث جرى فيكون له كالنفق.

جاء في (فتح القدير): (قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة) أى قال فتى موسى لموسى، ومعنى الاستفهام تعجيب لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك الأمر مما لا ينسي، لأنه قد شاهد أمرا عظيما من قدرة الله الباهرة...

---

١) روح المعانى ٣١٥/١٥.

والتقدير أرأيت ما دهانى أو نابنى فى ذلك الوقت والمكان... (واتخذ سبيله فى البحر عجا وموضع التعجب أن يحيا حوت قد مات وأكل شقه، ثم يثب إلى البحر ويبقى أثر جريته فى الماء لا يمحو أثرها ماء البحر[1] . وهذا المشهد لا ينسى على مر الأزمان، فكيف ينسى بعد لحظات فإن هذا من أقوى مواطن النسيان وأغربها وأعجبها فعدل فى التعبير من الكسر إلى أقوى الحركات وهى الضمة للإشارة إلى ندرة مثل هذا النسيان وقوته، فناسب بين قوة النسيان وقوة التعبير، وندرة مثل هذا النسيان وندرة مثل هذا التعبير، جاء فى (روح المعانى): "وضم حرف الهاء فى (أنسانيه) وهو قليل فى مثل هذا التركيب قلة النسيان فى مثل هذه الواقعة... وفى إيثار أن والفعل على المصدر نوع مبالغة لا تخفى[2] .

١ - قوة الحركة وهى الضمة مناسبة لقوة النسيان.

٢- ندرة هذه الحركة فى مثل هذا الموطن مناسبة لندرة النسيان فى مثل هذا الموطن، والله أعلم.

3- قال تعالى: (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) آل عمران: 120، بضم راء (يضركم) اتباعا لضمة الضاد والمشهور فى نحو هذا فتح الراء أو فك الإدغام والجزم، كقوله

تعالى: (من يرتد منكم عن دينه) المائدة:54 ، وقوله: (ومن يرتدد منكم عن دينه) البقرة: 217 . جاء فى (البحر المحيط): "وقرأ الكوفيون وابن عامر (لا يضركم) بضم الضاد والراء المشددة من ضر يضر... وقرأ عاصم فيما روى أبو زيد عن المفضل

---

(١) فتح القدير ٣/ ٢٨٨.
(٢) روح المعانى ٣١٨/١٥.

عنه بضم الضاد وفتح الراء المشددة، وهى أحسن من قراءة ضم الراء، نحو لم يرد زيد، والفتح هو الكثير المستعمل[1] . وقوله: إن فتح الراء أحسن من قراءة ضم الراء فيه نظر، نعم إنه أشهر وأكثر ولكن ليس أحسن وكيف تكون أحسن وهى ليست قراءة متواترة، فهى ليست من القراءات السبع ولا العشر بخلاف هذه القراءة، فإنه قرأ بها أربعة من القراء السبعة، وهم عاصم وحمزة بن حبيب الزيات والكسائى وابن عامر إضافة إلى أبى جعفر من العشرة[2] .
أنه ليس لأحد أن يفضل قراءة غير متواترة على متواترة، بل ليس له أن يفضل قراءة متواترة على أخرى متواترة، نعم إن له أن يختار لا أن يفضل، فـإن القراءات المتواترة كلها ثابتة عن رسول الله ه ثبوتا قطعيا لا تردد فيه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن لقراءة الضم وجها حسنا فى اداء المعنى فى هذا الموضوع، ذلك ان الضمة أثقل من الفتحة كما ذكرنا. والقراءة بالفتح فى هذا الموضع تشير إلى أنه ليس ثمة شىء من الضرر يصيبهم، وأما القراءة بالضم فكذلك، إلا أن فيها إشارة إلى ثقل الحالة التى هم فيها،
وأنه وإن لم يضرهم الكيد إلا انهم قد ينالهم الأذى، كما قال تعالى: (لن يضروكم إلا أذى) آل عمران:١١١، ولذا قال تعالى. (وإن تصبروا وتتقوا) ، أى تصبروا على أذاهم ومضايقتهم على طاعة الله وتتقوا المحرمات وأسباب الوهن ومنافذ أعداء الله

---

(١) البحر المحيط ٤٣/٣.
(٢) انظر النظر ٢/ ٢٤٢.

مما يدل على أن ثمة أذى قد يصيبهم، جاء فى (روح المعانى): "إن تصبروا على أذاهم أو على طاعة الله تعالى ومضض الجهاد فى سبيله (وتتقوا) ما حرم عليكم لا يضركم كيدهم أو مكرهم"[1]. وجاء فى (البحر المحيط) فى هذه الآية: "قال ابن عباس وإن تصبروا على أذاهم وتتقوا الله ولا تقنطوا ولا تسأموا أذاهم وإن تكرر[2] .
فالقراءة بالفتح تشير إلى أن ليس ثمة شيء من ذلك يصيبهم وإلى تهوين أمرهم. أما القراءة

بالضم فتشير إلى أن هذه الحالة أثقل وأشق من الأولى، فهى تحتاج إلى مراقبة وصبر وتقوى، وإنهم مع ذلك قد ينالهم الأذى والمكاره، فالقراءة بالفتح تخفف الأمر وتهونه وذلك لخفة الفتحة، والقراءة بالضم تشدده وفيها إشارة وتوجيه إلى ضرورة الحزم والصبر ليستعدوا لما قد ينالهم من الأذى وإن كان اخبر أن الكيد لا يضر هم. فكان للضمة وجه حسن، والله أعلم.

---

(١) روح المعانى ٤/٤٠-٤١.
(٢) البحر المحيط ٣/٤٣.

تعاور المفردات

قد تتعاور المفردات فى التعبير القرآنى فتستعمل مفردة فى موطن وتستعمل غيرها فى موطن آخر شبيه به، بل فى القصة الواحدة قد تستعمل مفردة فى موضع وتستعمل غيرها فى موضع آخر مع أن القصة واحدة والموقف واحد وذلك نحو قوله تعالى: (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) البقرة: ٦٠ ، فى سورة البقرة فى سورة الأعراف (فانبجست منه اثنتا عشرة عينا) والانفجار بالماء أغزر من الانبجاس[1] ، فخالف بين المفردتين مع أن القصة واحدة والموضوع واحد. وكقوله تعالى. (قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) فى سورة مريم، قال: (وآيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) في آل عمران، فمرة قال: (ثلاث ليال) ومرة قال: (ثلاثة أيام) إن القصة واحدة، وهى قصة سيدنا زكريا عليه السلام والليالى غير الأيام.
وقوله تعالى: (ورفعنا فوقكم الطور) البقرة:٦٣ ، فى البقرة، وقوله. (ورفعنا فوقهم الطور) فى النساء، فى حين قال فى الأعراف: (وإذ نتقنا الجبل فوقهم) فاستعمل (الطور) فى البقرة والنساء غير أنه استعمل لفظ (الجبل) فى الأعراف والقصة واحدة، ونحو ذلك كثير في القرآن الكريم، وقد ضربنا أمثلة لذلك فى كتاب (التعبير القرآنى) إن الذى نريد ان نوضحه هنا أن ذلك ليس تناقضا ولا اختلافا، بل إن ما ذكره فى الموضعين حق حتى لو اختلف معنى المفردتين، ذلك أن المذكور قد يكون
عاما في موطن وخاصا فى موطن أخر، وقد تكون له حالتان فيذكر حالة فى موطن ويذكر حالى أخرى فى موطن أخر، وقد يكون الأمر عاما فيذكر جزءا منه فى موطن ويذكر الجزء الآخر فى الموطن الآخر وهكذا، وكل ذلك بحسب ما يقتضيه السياق والمقام، كما سنبين ذلك.

---

(١) الظر: معترك الأقران ٨٧/١ ـ ٨٨، درة التنزيل ١٤ ـ ٢٠، البرهان للكرمانى ٨٨- ٨٩.

٣- قال فى سورة البقرة: (كلوا واشربوا من رزق الله) البقرة:٦٠ ، فجمع لهم بين الأكل والشرب، ولم يرد فى الأعراف ذكر الشرب فناسب ذلك أن يبالغ بذكر الانفجار بالماء فى البقرة.
4 - إن الله أسند القول إلى نفسه فى سورة البقرة، فقال (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا) البقرة:.٥٨، فى حين بنى القول للمجهول فى الأعراف، فقال: (وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم) . وإسناد القول إلى نفسه يكون فى مقام التكريم

والتشريف بخلاف البناء للمجهول[1]، فناسب في مقام التكريم ذكر الانفجار بالماء دون الانبجاس. ٥- إن القصة فى البقرة وردت فى مقام تعداد النعم على بنى إسرائيل وفى مقام تكريمهم (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين) البقرة: ٤٧ . في حين أن المقام فى سورة الأعراف مقام تقريع وتأنيب على ما فعلوه وارتكبوه من مأثم، فناسب فى مقام تعداد النعم والتكريم ذكر حالة الانفجار دون الحالة الأخرى، والله أعلم. فذكر فى كل مقام ما يقتضيه من التعبير وكلاهما حق لا مرية فيه، ومن ذلك استعمال الطور والجبل مع ان القصة واحدة.

قال تعالى في البقرة: (وإذ اخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما أتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) البقرة: ٦٣ .

---

(١) انظر التعبير القرآنى ٢٧٨ وما بعدها.

وقال فى النساء: (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) النساء: 154 . فى حين قال فى الأعراف: (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) الأعراف: ١٧١ . فاستعمل (الطور) فى آيتى البقرة والنساء، واستعمل (الجبل) فى آية الأعراف، ذلك أن التهديد فى أية الأعراف أشد فاستعمل لفظ (الجبل) لذلك فإن (الجبل) اسم لما طال وعظم من أوتاد الأرض[1]، ولا يشترط فى الطور ذلك، فالجبل
أعظم من الطور، ولذلك يجيء فى مقام الشدة والهول وبيان المقدرة العظيمة اسم (الجبل) وذلك نحو قوله تعالى فى قول موسى عليه السلام: (رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعلة دكا وخر موسى صعقا) الأعراف: 143 . فانظر كيف اختار لفظ الجبل على الطور للدلالة على عظم التجلى وأثره، ولذلك أيضا ذكر لفظ الجبال دون الأطوار فى مقام التهويل والتعظيم والدلالة على القدرة التى لا تحد، فقال: (ألم نجعل الارض مهادا والجبال أوتادا) النبأ: 6، 7 ، وقال: (والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم) النازعات:٣٢، ٣٣. وقال فى القيامة: (و إذا الجبال سيرت) التكوير:٣، وقال: (وإلى الجبال كيف نصبت) الغاشية: ١٩، ففيها من الدلالة على العظم ما ليس فى اسم الطور[2] . ولذلك استعمل (نتقنا) مع (الجبل) ولم يستعمل (رفعنا) لما فى النتق من التهديد الشديد والتخويف "فإن النتق أشد وأقوى من الرفع، ذلك أن معنى النتق هو

---

١) لسان العرب (جبل) ١٠٢/١٣.

(٢) أنظر كتابنا (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) بحث التقديم والتأخير.

الجذب والزعزعة والاقتلاع، ومعناه أيضا هو أن يقلع الشيء فيرفعه من مكانـه ليرمى به هذا هو الأصل[1]، فى حين ان الرفع ضد الوضع. فأنت ترى أن فى نتق الجبل من الغرابة والقوة والإخافة والتهديد ما ليس فى رفع الطور، فأن يزعزع الجبل ويقلع من مكانه ويرفع يرمى به كأن هناك قاذفا يقذف به عليهم أمر مرعب ومخيف وفيه من القوة والشدة ما ليس فى رفعه... ألا ترى لو أن شخصا رفع حجارة من الأرض وتهيا لضرب شخص ما، ألم يكن ذلك أكثر تهديدا وإخافة من مجرد رفع الحجارة من الأرض"[2].

فاستعمل (الجبل) بدل (الطور) و (نتقنا) بدل (رفعنا) لأن المقام يقتضى ذلك، فإنه أفاض فى ذكر صفات بنى إسرائيل الذميمة ومعاصيهم فى الأعراف ما لم يفضه فى سورتى البقرة والنساء فاقتضى أن يكون كل تعبير فى مكانه. ومن ذلك فى سبيل المثال قوله تعالى فى البقرة: (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) البقرة: ٦٠ ، وقوله فى الأعراف: فانبجست منه اثنتا عشرة عينا) الأعراف: ١٦٠، فقد تقول: إذا كان الانفجار أكثر وأغرز من الانبجاس، فلم قال مرة (انفجرت) وقال مرة أخرى (انبجست) وما حقيقة الأمرهل انفجرت العيون بالماء أم انبجست؟ والجواب أن كلا الأمرين حصل فقد انفجرت أولا بالماء الكثير كما قيل - ثم قل الماء بمعاصيهم فأخذ ينبجس فذكر حالة الانفجار فى موطن وحالة الانبجاس فى موطن أخر، كما ذكرنا فى (التعبير القرآني)[3]، فالأمران واقعان وكلاهما حقيقة، غير أنه ذكر حالة كل منهما تبعا لما يقتضيه السياق ولو غير بينهما فاستعمل الانفجار مكان الانبجاس لكان خلاف الأولى وخلاف ما يقتضيه السياق والمقام. وكذلك قوله تعالى: (قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) مريم: 10 .

---

(١) لسان العرب (نتق).
(٢) انظر كتابنا (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) بحث التقديم والتأخير.
(٣) انظر التعبير القرآنى ٢٨٦.

فقد ذكر فى سورة مريم أنه لا يكلم الناس ثلاث ليال، وذكر فى آل عمران أنه لا يكلم الناس ثلاثة أيام، والأيام غير الليالى، فإن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها والليل، ما يقابل النهار، فما حقيقة الأمر أو لا يكلمهم ثلاثة أيام أم ثلاث ليال؟ والجواب أن كلا الأمرين حقيقة، فهو لا يتمكن من أن يكلم الناس ثلاثة أيام بلياليهن، فمرة ذكر الأيام، ومرة ذكر الليالى، وكل ذلك صحيح ولا تناقض، غير أنه ذكر الليالى فى موطن والأيام فى موطن لسبب اقتضاه المقام،

كما سنبين ذلك. ومثل ذلك ما استعمله فى الطور والجبل، فإن الطور جبل غير أن اختيار كل لفظة كان لسبب اقتضاه المقام، وهكذا كل ما ورد بلفظتين مختلفين فى القصة الواحدة أو الموقف الواحد فإن كل ذلك حقيقة ليس ثمة تناقص أو اختلاف بين الأمرين إلا أن اختيار لفظ على آخر فى كل موطن له سببه. هذا قول نقوله على سبيل الإجمال. وإليك مزيدا من الإيضاح والتفصيل. قال تعالى: (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) البقرة: ٦٠ . وقال: (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا علـيهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) الأعراف: 160 . فقال فى البقرة: (فانفجرت) وقال فى الأعراف: (فانبجست) كما ذكرنا، وقد ذكرنا فى (التعبير القرآنى) هذه القصة وما ورد منها فى سورتى البقرة والأعراف، وذكرنا أوجه الاختلاف بينهما وتعليل ذلك وأشرنا إلى أسباب التعبير بالانفجار والانبجاس وغير ذلك من مواطن الاختلاف(1)

.

ولا نريد أن نعيد ما ذكرناه هناك، غير أنا نقول على سبيل الاختصار والإيجاز انه عبر بالانفجار فى سورة البقرة والانبجاس فى سورة الأعراف لجملة أسباب منها والله أعلم.

١ - أن موسى هو الذى استسقى فى سورة البقرة: (وإذ استسقى موسى لقومه) البقرة: ٦٠، فناسب إجابته بانفجار الماء، فى حين ذكر فى سورة الأعراف أن قومه هم الذين استسقوا موسى: (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه) والحالة الأولى أكمل فناسب اجابته بانفجار الماء دون الثانية.

٢- قال فى سورة البقرة: (فقلنا اضرب بعصاك الحجر) البقرة:٦٠) أى أن الله قال ذلك لموسى قولا فى حين ذكر فى الأعراف أن الله أوحى إلى موسى بذلك وحيا، (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر) والحالة الأولى أكمل وأتم، فإن القول الصريح من الله أكمل وأقوى من الوحى فناسب ذلك ذكر الانفجار فى البقرة والانبجاس فى الأعراف. ومن ذلك قوله تعالى فى زكريا عليه السلام فى سورة آل عمران: (قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) (آل عمران:٤١)، وقوله فى سورة مريم: (قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) مريم: 10 .

---

(١) انظر التعبير القرآنى ٢٧٦- ٢٨٧.

فقال فى آل عمران: (ثلاثة أيام) وقال فى مريم: (ثلاث ليال)، واليوم هو يقابل الليل، قال تعالى: (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما) الحاقة: ٧ ، "ومقداره من طلوع الشمس إلى غروبها... وقد يراد باليوم الوقت مطلقا ومنه الحديث: (تلك أيام الهرج) أى وقته[1] ، ودل من ذكر الليالى فى مريم والأيام فى آل عمران أن زكريا عليه السلام لا يتمكن من أن يتكلم الناس ثلاثة أيام وليالهن[2] ، من دون علة أو مرض فى حين أنه يستطيع أن يذكر الله ويسبحه فى نفسه، فذكر الليالى فى آية مريم وذكر الأيام فى آل عمران. وقد تقول: وما سبب هذا التخصيص؟ والجواب: أن ذلك يتضح من سياق الآيات فى كل من الموضعين. قال تعالى فى سورة آل عمران: ف(هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء فنادته الملائكة وفو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء قال رب اجعل لي أية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار) آل عمران: 38-41 . وقال فى سورة مريم: (ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا قال كذلك قال ربك فو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) آل عمران: 2- 11 .

---

(١) لسان العرب (يوم) ١٣٦/١٦ - ١٣٨، تاج العروس (يوم) ١١٥/٩.
٢) الكشاف ٢/ 275.

ولو نظرنا فى هذه الآيات لوجدنا أن المقابلة لم تختص بهذا الموطن، وإنما هى ظاهرة فى مواطن أخرى من النصين وكأنهما لوحتان فنيتان متقابلتان وإليك طرفا من هذا التقابل.

١ - قال تعالى فى آل عمران. (ثلاثة أيام) وقال فى مريم: (ثلاث ليال).

٢- قدم مانع الذرية من جهة نفسه فى آل عمران وهو الكبر على المانع من جهة زوجه وهو العقر، فقال: (وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر) فى حين قدم المانع من جهة زوجه فى مريم فقال: (وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا) ٣- ذكر فى آل عمران أن الكبر أدركه

وبلغه، فقال: (وقد بلغنى الكبر) فالكبر فاعل وضمير المتكلم مفعول به، فى حين ذكر فى مريم أنه هو الذى بلغ الكبر، فهو فاعل، فقال. (وقد بلغت من الكبر عتيا)، ومعنى (بلغنى الكبر) أثر فى الكبر فأضعفنى وأسند البلوغ الى الكبر توسعا فى الكلام، كأن الكبر طالب له[1] ، يجرى خلفه حتى أدركه وبلغه.

٤ - ذكر فى آل عمران أن امرأته عاقر وذكر فى مريم أن امرأته كانت عاقرا بزيادة لفظ (كان).

٥- قدم العشى على الإبكار فى آل عمران: (وسبح بالعشى والإبكار وقدم البكرة على العشى فى مريم، فقال: (أن سبحوا بكرة وعشيا).

٦ - عرفهما بأل فى آل عمران: (بالعشى والإبكار)، وذكرهما فى مريم، فقال: (بكرة وعشيا).

---

(١) انظر الكشاف ٣٢٢/١، البحر المحيط 2/ 450، روح المعانى ١٤٩/٣.

٧- طلب فى آل عمران من زكريا الذكر والتسبيح، فقال. (واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والأبكار)، وفى مريم طلب زكريا من قومه أن يسبحوا ولم يذكر أنه طلب منه ذاك.

وهناك مقابلات أخرى. فكأن المشهدين متقابلان تقابل الليل والنهار، ثم إن اختيار الليل في مريم يقتضيه سياق القصة وجوها، وكذلك اختيار اليوم فى آل عمران، فقوله تعالى: (إذ نادى ربه نداء خفيا) حسن ذكر فيه من ظلمة بخلاف النهار فإنه يفيد الظهور والاظهار. ومما حسن ذلك أيضا ذكر شيخوخته وضعفه، وهما أشبه شيء بالليل وما فيه من سبات وسكون وقلة حركة، وإذا كان لنا أن نقابل بين حال الإنسان والزمان فإن الشباب والعافية أشبه شيء بالنهار وما فيه من حركة، وإن الشيخوخة والضعف أشبه شيء بالليل وما فيه من سكون. فذكر شيخوخته ووهن عظمه مع الليل، فقال: (رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا..... وقد بلغت من الكبر عتيا) أى مبلغ النحول والضعف،

ومعنى (العتى) المبالغة فى الكبر ويبس العودأ[1] ولم يذكر مع الأيام إلا قوله: (وقد بلغنى الكبر فما ذكره فى مريم أنسب مع ذكر الليل. ثم إنه أشار فى مريم إلى طلبه وريثا يرثه بعد موته ويرث من آل يعقوب، فقال: وإنى خفت الموالى من ورائى أى بعد موتى، والموت ليل طويل وسبات ممتد، وفى الأكثر (النوم أخو الموت) وفى التنزيل: (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) الأنعام: ٦٠ ، وهذا أقرب إلى اللين وذكره وألصق به من ذكر النهار، ولم يذكر مثل ذلك فى آل عمران حيث ذكر الأيام.

---

(١) البحر المحيط 6/175 .

هناك أمر آخر يتجلى من هذين النصين وهو: أن البشارة بيحيى فى آل عمران أكمل وأعظم مما فى مريم، ذلك أنـه قال: وأن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين فوصفه بقوله: (مصدقا بكلمة من الله أى مصدقا بعيسى وسيدا، وحصورا، وهو الحاصر نفسه عن الشهوات وعن المعاصى[1] . ونبيا، من الصالحين، أى "ناشئا من الصالحين لأنه كان من أصلاب الأنبياء أو كائنا من جملة الصالحين، كقوله: (وانه فى الآخرة لمن الصالحين)[2] في حين لم يقل فى سورة مريم إلا: (إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا). ولعظم البشارة وكمالها اقتضى ذلك عظم الشكر وكماله. ١ - فقال فى أية آل عمران: (آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام) وقال فى مريم: (آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال) واليوم أبين من الليل فى ظهور هذه الآية، ذلك أن الليل يمضى كثير منه فى النوم، فزكريا عليه السلام لابد أن ينام فيه والناس أيضا
ينامون، فالتسبيح والعبادة فى الليل أقل مما فى النهار.. ومخاطبة الناس ومخالطتهم فيه أقل، فالآية فى اليوم أطول وأظهر.

٢- أنه فى آل عمران طلب من زكريا عليه السلام أن يذكر به (واذكر ربك)، فى حين طلب زكريا من قومه في سورة مريم أن يسبحوا ولم يذكر أنه طلب منه التسبيح، وتسبيحه هو أدل على شكره.

٣ أنه طلب منه ان يذكر ربه كثيرا فى آل عمران (واذكر ربك كثيرا) وهذا شكر مناسب لعظم البشارة.

---

(١) انظر البحر المحيط ٤٨/٢ ، وأنظر تفسير البيضاوى ٧٣.
(٢) الكشاف ٣٢٢/١.

٤ - أنه طلب منه الجمع بين الذكر الكثير والتسبيح (واذكر ربك كثيرا وسبح)، وهذا مناسب لعظم البشارة.

٥- لما قدم فى آل عمران المانع من جهة نفسه ناسب أمره هو بالذكر والتسبيح وأن يقوم به هو، ولما قدم فى مريم المانع من جهة غيره (وهو الزوج) ناسب ذكره غيره بالتسبيح وهم قومه. هناك سبب دعا إلى تقديم المانع من جهة نفسه فى آل عمران وتقديم المانع من جهة زوجه فى مريم ذلك أنه قال فى آل عمران (وامرأتى عاقر) وقال فى مريم (وكانت امرأتى عاقرا) والعقر قد يحصل عن الكبر والهرم أو عن عارض، وقد يكون ذلك طبيعة، جاء فى (فتح القدير) فى قوله: (وكانت امرأتى عاقرا) العاقر هى التى لا تلد لكبر سنها والتى لا تلد أيضا لغير كبر وهي المرادة هنا[1] . وفى (الصباح المنير) : "عقرت المرأة... انقطع حملها فهى

عاقر[2] . وفى (لسان العرب) : "بيضة العقر... قيل هى آخر بيضة تبيضها أى الدجاجة إذا هرمت ..ويقال كان ذلك بيضة العقر معناه كان ذلك مرة واحدة لا ثانية لها[3] . فقوله: (وكانت امرأتي عاقرا) يفيد أن هذا شأنها حال الإخبار عنها، وربما لم تكن كذلك قبلا وأما قوله: ؤوكانت امرأتى عاقرا فيفيد أن هذا وصفها منذ شبابها، فالعقر وصف مستحكم فيها وليس عارضا، فتكون الولادة فى مثل هذا أبعد وأعجب، جاء

---

(١) فتح القدير ٣١١/٣.
(٢) المصباح المنير (عقر) ٤٢١.
(٣) لسان العرب (عقر) ٢٧٢/٦- ٢٧٣، وانظر (أساس البلاغة) عقر ٦٤٦.

فى (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير: "وكذلك امرأته كانت عاقرا من أول عمرها"[1] . فقدم ما هو أبعد وأدعى إلى العجب فى مريم بخلاف ما فى آل عمران.

٦- لما ذكر الليل فى آية مريم (ثلاث ليال) ناسب ذلك تقديم البكرة على العشى، لأن البكرة أول النهار وهى من الفجر إلى طلوع الشمس[2] ، أو إلى الضحى[3] ، والعشى من بعد الزوال إلى غروب الشمس، أى من وقت صلاة الظهر إلى المغرب[4] .ولا شك أنه بعد الليل تأتى البكرة ثم العشي، فأراد أن لا يذهب من الوقت شيء فى غير الطاعة والتسبيح، فقال: (بكرة وعشيا) ولو قال (عشيا وبكرة)، لكانت البكرة الأولى مضت من دون تسبيح فكان تقديم البكرة ههنا أتم وأولى ولما ذكر اليوم فى آل عمران (ثلاثة أيام) كان تقديم العشى أولى، لأن بكرة ذلك اليوم قد مضت وبقى العشى، فلابد من ابتداره للتسبيح والذكر فيه، فلو قدم البكرة أيضا لذهب عشى اليوم الأول من دون تسبيح وذكر، فيه قد ذهب البكرة والعشي، فتقديم ما قدم هو الأولى والأدل على الشكر.

٧ - أن البشارة فى آل عمران حصلت وهو قائم يصلى فى المحراب، فى حين لم يذكر ذلك فى مريم، بل علمنا من فحوى الكلام أن البشارة كانت وهو فى المحراب بدليل قوله:(فخرج على قومه من المحراب) ولا يقتضى كونه فى المحراب أنه كان يصلى فيه، فذكر فى آل عمران الحالة الأكمل التى كان عليها سيدنا زكريا وهو المناسب لعظم البشارة وكمالها.

---

(1) تفسير القرآن العظيم ١١٢/٣، وانظر فتح القدير ٣١١/٣.
(٢) الظر لسان العرب (غدا) ٣٥٢/١٩.
(٣) انظر روح المعانى ٣ ٢١ ١٥، تفسير البيضاوى ٧٣.
(٤/ لسان العرب (عشا ٢٨٩/١٩، روح المعانى ٣/ ١٥٢، تفسير البيضاوى ٧٣.

٨- أن البكرة والعشى نكرتان فى مريم: (أن سبحوا بكرة وعشياه معرفتان فى آل عمران: (بالعشى والإبكار) ويذكر المفسرون ان (أل) فى (بالعشى والابكار) تفيد العموم، جاء فى (البحر المحيط): "والظاهر فى (بالعشى والإبكار) أن الألف واللام فيهما للعموم ولا يراد عشى تلك الثلاثة الأيام ولا قت الإبكار فيها"[1]. ونظير ذلك من الظروف كثير مما دخلت عليه (أل) فى الاستعمال القرآنى، وذلك نحو قوله تعالى: (فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار) غافر 55 . وقوله: (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق) ص: 18 ، وقوله: (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) فصلت ٣٨. ونحوها كثير مما يدل على العموم والاستمرار. وذلك يدل على تطاول مدة الذكر والتسبيح وهو مناسب لعظم البشارة، والله أعلم.

ومن اختلاف المفردة فى الموطنين المتشابهين قوله تعالى: (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) (البقرة: ١٢٥، وقوله:(وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) الحج:٢٦ فقال فى سورة البقرة (والعاكفين) وقال فى سورة الحج (والقائمين)

---

(١) البحر المحيط ٤٥٣/٢، وانظر روح المعانى ١٥٢/٣.

والعاكفون هم أهل البلد الحرام المقيمون، وقيل هم المجاورون له من الغرباء وهم الذين عكفوا عنده، أى أقاموا لا يبرحون، وقيل هم المعتكفون فيه[1] ، والقائمون هم المصلون، كما يقول المفسرون، فعلى هذا يكون القائمون هم الركع السجود، إلا أنه ذكر أهم أركان الصلاة وهى القيام والركوع والسجود، جاء فى (البحر المحيط): "والقائمون هم المصلون ذكر من أركانها أعظمها وهو القيام والركوع والسجود"[2] . وجاء فى (روح المعانى): "ولعل التعبير عن الصلاة بأركانها من القيام والركوع والسجود للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء التطهير أو التبرئة على ما قيل"[3] . والذى يظهر لي، والله أعلم، أن القيام لا يختص بالقيام فى الصلاة، وإنما هو يشمل القيام بأمر الدين عموما والاستمساك به والمحافظة عليه. فالقائمون هم المستمسكون بدين الله الثابتون عليه، كما قال تعالى: (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قآئمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) آل عمران:113 . جاء فى (لسان العرب) : "معنى القيام العزم... ومنه قوله تعالى: (و أنه لما قام عبد الله يدعوه) أى لما عزم، وقوله: (إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات

---

(١) انظر البحر المحيط ٣٨٢/١، الكشاف ٢٣٧/١، روح المعانى ٣٨١/١، تفسير ابن كثير ١٧٠١١، فتح القدير ١٢١/١.
(٢) البحر المحيط ٣٦٤/٦، وانظر فتح القدير ٣ ٤١٣ ٤٣.
(٣) روح المعانى ١٧/ ١٤٣.

والأرض» أى عزموا فقالوا... والقائم بالدين المستمسك به الثابت عليه... وعليه قوله تعالى: (من أهل الكتاب أمة قائمة) أى مواظبة على الدين ثابتة[1] ."وكذلك فلان قائم بكذا إذا كان حافظا له متمسكا[2] ، أما سبب ذكر (العاكفين) فى سورة البقرة، و (القائمين) فى سورة الحج، فذلك أمر يقتضيه السياق. إن معنى (العكوف) الإقامة ولزوم المكان، جاء فى (لسان العرب): "عكف على الشيء: أقبل عليه مواظبا لا يصرف وجهه عنه، وقيل أقام، ومنه قوله تعالى: (يعكفون على أصنام لهم) أى يقيمون، ومنه قوله تعالى: (ظللت عليه عاكفا) أى مقيما.. ويعكف عكفا وعكوفا لزم المكان، والعكوف الإقامة فى المسجد قال الله تعالى: (و أنتم عاكفون فى المساجد)، قال المفسرون وغيرهم من أهل اللغة: عاكفون: مقيمون فى المساجد لا يخرجون منها إلا لحاجة الإنسان يصلى فيه ويقرا القرآن، ويقال لمن لازم المسجد وأقام على العبادة فيه عاكف ومعتكف[3] .وقد ذكرنا أن العاكفين هم أهل البلد الحرام المقيمون، وقيل: هم المجاورون له من الغرباء، وقد جاءت الآية فى سياق ذكر أهل البلد الحرام وسكانه، قال تعالى. (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) البقرة: ١٢٦. وذكر ذرية إبراهيم وإسماعيل، فقال: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عيهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) البقرة: ١٢٧ - ١٢٩.

---

(١) لسان العرب (قوم) ٣٩٨/١٥- ٤٠٣.
(٢) لسان العرب (قوم) ٤٠٣/١٥.
(٣) لسان العرب (عكف) ١٦١/١١.

وسكان البلد الحرام هم من ذرية إبراهيم وإسماعيل، ومن هؤلاء السكان المقيمين فى البلد الحرام بعث النبى الأمين الذى دعا به إبراهيم وإسماعيل فناسب ذلك ذكر العاكفين وهم أهل البلد الحرام المقيمون أو المجاورون وعموم من لزم المسجد الحرام. أما فى أية الحج، فقد ذكر (القائمين) ولم يذكر العاكفين، ذلك أنه قال قبل هذه الأية، (و المسجد الحرام الذي جعلناه

للناس سواء العاكف فيه والباد) (الحج:٢٥) فجعل العاكف فيه وغيره سواء فليس من المناسب أن يفرد العاكفين، فقال: (والقائمين) والقائمون قد يكونون من العاكفين وغيرهم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر بعدها فريضة الحج والحجاج الذين ياتونه من كل فج عميق ولم يذكر أهل البلد الحرام وسكانه، فقال: (و أذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) الحج:٢٧- 29 . ومن هؤلاء المذكورين من سيعود إلى أهليهم بعد قضاء فريضة الحج، فلا يناسب ذلك ذكر العكوف والإقامة وإنما يناسبه القيام، والقيام من معانيه القيام بأمر الدين والاستمساك به، كما ذكرنا ومن ذلك القيام بالصلاة وبمناسك الحج وغيرها من الطاعات فناسب ذلك ذكر العاكفين فى البقرة والقائمين فى سورة الحج، والله أعلم.

المراجع

- أساس البلاغة لجار الله الزمخشرى مطابع الشعب، ١٩٦٠.
- أنوار التنزيل - القاضى البيضاوى المطبعة العثمانية، ١٣٠٥ هـ.
- البحر المحيط لأبى حيان، طا سنة ١٣٢٨ هـ - مطبعة السعادة بمصر.
- البرهان فى علوم القرآن لبدر الدين الزركشى، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، ط ١٣٧٦/١ هـ- ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية.
- البرهان فى متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان - محمد بن حمزة الكرماني، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية أصول الدين فى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، حققها ناصر بن سليمان العمر، طبع بالآلة الكاتبة.
- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز - لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، تحقيق الأستاذ محمد على النجار، القاهرة، ١٣٨٣ هـ.
- تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الزبيدى، منشورات مكتبة الحياة، بيروت تصوير الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر، سنة ١٣٠٦هـ.
- التعبير القرآني، د.فاضل صالح السامرائى، مطابع جامعة الموصل، ١٩٨٩م
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، طبع بدار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى وشركاه.
- الجملة العربية تأليفها وأقسامها، د. فأضل صالح السامرائي، مخطوط.
- الخصائص لابن جنى، تحقيق محمد على النجار، مطبعة دار الكتب المصرية.
- درة التنزيل وقرة التأويل للخطيب الإسكافى، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط١٣٩٣/١ هـ - ١٩٧٣م.
- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم لشهاب الدين السيد محمود الآلوسى، إدارة الطباعة المنيرة، دار إحياء التراث العربى.
- شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبد الله الأزهرى، دار إحياء الكتب العربية.
- شرح الشافية لرضى الدين الاستربادى، تحقيق: محمد محيى الدين وجماعة، مطبعة حجازى، القاهرة.
- شرح الكافية لرضى الدين الاستربادى، مطبعة الشركة الصحافية العثمانية،
- شرح المفصل لابن يعيش، طبع ونشر إدارة الطباعة المنيرية.

- صحيح مسلم، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده مصر.
- فتح القدير لمحمد بن على الشوكانى طـ!، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، سنة ١٣٤٩ هـ..
- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادى، طه، شركة فن الطباعة، مصر.
- الكشاف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشرى، مطبعة مصطفى البـابى الحلبى وأولاده بمصر، سنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨م.
- لسان العرب لابن منظور مصور على طبعة بولاق.
- لمسات فنية فى نصوص التنزيل، د.فاضل صالح السامرائى، مخطوطة.
- المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جنى، تحقيق. على النجدى ناصف والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبى - القاهرة، ١٣٨٩ ه - ١٩٦٩م
- المصباح المنير للفيومى، المكتبة العلمية، بيروت.
- معانى الأبنية فى العربية، د. فاضل صالح السامرائى، طا، دار الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١
- معانى القرأن لأبى زكريا يحيى بن زياد الفراء، مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥
- معانى النحو، د.فاضل صالح السامرائى، مطابع دار الحكمة للطبع والنشر، الموصل، طا
- معترك الأقران فى إعجاز القرآن، لجلال الدين السيوطى، تحقيق: محمد على البجاوى، دار الثقافة العربية للطباعة.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى، طهران.
- ملاك التأويل، لأبى جعفر أحمد بن الزبير الغرناطى، تحقيق: الدكتور محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت، ١٤٠٥هـ-
١٩٨٥
- النشر فى القراءات العشر، لابن الجزرى، مطبعة مصطفى محمد بمصر.
- همع الهوامع للسيوطى، طا، سنة ١٣٢٧ فـ، مطبعة السعادة بمصر.